



The Lived Experience of Sub-Saharan African Migrants in Morocco: Between Indicators of Social Rejection and Acceptance

ELAYACHI DOGHMI****

UNIVERSITY HASSAN II CASABLANCA; FACULTY OF ARTS AND
HUMANITIES MOHAMMEDIA

Email 1 : elayachi.doghmi@gmail.com

Email 2 : elayachi.doghmi-etu@etu.univh2c.ma

Abstract

This study seeks to explore the everyday lived experiences of African migrants from Sub-Saharan countries in Morocco by examining indicators of social acceptance and rejection in their relationships with Moroccans, from the migrants' own perspectives. It is guided by a central question: Does the settlement of Sub-Saharan African migrants in Morocco constitute an indicator of their cultural and social acceptance within Moroccan society?

The study adopts a qualitative methodological approach based on semi-structured interviews and discourse content analysis. The research sample comprised ten male and female migrants who had been residing in Morocco for varying periods. The analysis of their experiences and narratives revealed that their perceptions of social acceptance by Moroccans remain conditional upon their ability to adapt and compromise on aspects of their cultural identities, practices, and behaviors. Such acceptance is also shaped by ongoing processes of moral negotiation and adherence to the social norms governing everyday life in Moroccan society.

The findings suggest that settlement in Morocco, in itself, does not necessarily constitute evidence of cultural or social acceptance. Rather, it reflects a continuous process of negotiation between migrants and the host society concerning the boundaries of difference, the conditions of integration, and the forms of social acceptance.

Keywords: African migrant; social acceptance; integration; migration; everyday life; relationships with Moroccans.

**** PhD candidate – Hassan II University – Faculty of Arts and Humanities, Mohammedia – Laboratory of Sociological, Psychological, and Cultural Research, Morocco.



تجربة المعيش اليومي للمهاجر الإفريقي من جنوب الصحراء الكبرى بالمغرب : بين مؤشرات الرفض والقبول الاجتماعيين

العياشي الدغمي⁺⁺⁺⁺

جامعة الحسن الثاني - الدار البيضاء ؛ كلية الآداب والعلوم الإنسانية - المحمدية

الايمل 1: elayachi.doghmi@gmail.com

الايمل 2: elayachi.doghmi-etu@etu.univh2c.ma

ملخص

تسعى هذه الدراسة إلى استكشاف التجارب المعيشية اليومية للمهاجرين الأفارقة القادمين من دول جنوب الصحراء الكبرى والمقيمين في المغرب، وذلك من خلال فحص مؤشرات القبول والرفض الاجتماعي في علاقاتهم مع المغاربة، انطلاقاً من وجهات نظر المهاجرين أنفسهم. وتتمحور الدراسة حول سؤال رئيسي: هل يُعد استقرار المهاجرين الأفارقة (من جنوب الصحراء) في المغرب مؤشراً على قبولهم ثقافياً واجتماعياً داخل المجتمع المغربي؟ تعتمد الدراسة منهجية نوعية تركز على إجراء مقابلات شبه موجهة وتحليل مضمون الخطاب. وقد شملت عينة البحث عشرة مهاجرين ومهاجرات ممن أقاموا في المغرب لفترات متفاوتة. وأظهر تحليل تجاربهم ورواياتهم أن تصوراتهم بشأن القبول الاجتماعي من قِبل المغاربة تظل مرهونة بقدرتهم على التكيف وتقديم تنازلات تتعلق بجوانب من هويتهم الثقافية وممارساتهم وسلوكياتهم. كما يتشكل هذا القبول من خلال عمليات مستمرة من التفاوض القيمي والالتزام بالأعراف الاجتماعية التي تحكم الحياة اليومية في المجتمع المغربي. كما تشير النتائج إلى أن الاستقرار في المغرب لا يمثل - بحد ذاته - بالضرورة دليلاً على القبول الثقافي أو الاجتماعي؛ بل إنه يعكس عملية تفاوض مستمرة بين المهاجرين والمجتمع المضيف حول حدود الاختلاف، وشروط الاندماج، وأشكال القبول الاجتماعي. الكلمات المفتاحية: المهاجر الإفريقي، القبول الاجتماعي، الاندماج، الهجرة، العلاقة بالمغاربة.

++++ طالب باحث بسلك الدكتوراه - جامعة الحسن الثاني - كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية - مختبر "الأبحاث السوسولوجية، البسيكولوجية، والثقافية". المغرب



مقدمة

« لقد هاجر الناس رجالا ونساء دائماً، إننا نوع متنقل وقابل للتكيف » (Mckeown, 2012, 31-46)؛ ذلك أن الهجرة ليست ظاهرة جديدة المنشأ ترتبط بـ « الإنسان المعاصر »، بل هي حالة البشرية جمعاء منذ بدأت في التوسع والانتشار عبر بقاع الأرض، فقد كان الانتقال البشري من مكان لآخر بحثاً عن سبل وآفاق وموارد للعيش، من صميم التجربة الإنسانية، وشكل على الدوام الوجه الآخر للوجود الإنساني، من حيث هو وجود يتسم بالحركية الدائمة والتغير المستمر. اليوم ومع تطور وسائل المواصلات، وما أتاحه ذلك من سرعة في التنقل، أضحت الهجرات العابرة للحدود الدولية تعكس صورة العالم (Mazzella, 2016)، وتعبّر عن الديناميات التي تخلقها الصراعات السياسية، والاقتصادية، والثقافية. إنها – وبمعنى أدق – انعكاس للتحوّلات التي باتت تمس نمط العيش الإنساني المعاصر، كنمط يفرض ذاته على وجود عدد لا يستهان به من الناس.

فقد أضحى عدد المهاجرين الذين يعيشون اليوم خارج أماكن ولادتهم، سواء بشكل طوعي أو نتيجة لدوافع قسرية : كالحروب، والصراعات السياسية، أو نتيجة لعوامل مناخية وطبيعية، يشكل ما نسبته 3,6 % من مجموع عدد سكان العالم، أي حوالي 281 مليون مهاجر (المنظمة العالمية للهجرة، 2020).

إننا هنا أمام ظاهرة عالمية، نتيجة لعولمة الحياة الإنسانية، ونتيجة لتطور الصناعة وتقنيات النقل والاتصالات الجديدة، ونمو الأسواق الدولية، وارتفاع الطلب على اليد العاملة في المناجم، والمصانع، والمزارع، وتطور البنيات التحتية في المدن، وما رافق ذلك من تفاوتات مجالية، واقتصادية انعكست بشكل مباشر أو غير مباشر على مستويات العيش، وخلقت فوارق في الدخل بين الأفراد والمجتمعات (Mckeown, 2012). الأمر الذي فتح المجال أمام إمكانيات كبيرة للتنقل والهجرة بسرعة أكبر، ومن خلال مسارات متعددة ومختلفة، سواء تعلق الأمر بالمسارات ذات الطابع « النظامي/المقنن » أو بمسارات مبتكرة تتجاوز الحدود القانونية، والمجالية الموضوعة من طرف الدول والمؤسسات الرسمية، أو ما يرتبط بما يطلق عليه : « الهجرات السرية، أو غير الشرعية » والمعروفة محلياً بـ « لحرّيك » *lehrig*

في هذا الإطار لا يشكل المغرب استثناء، إذ يتيح له موقعه الجغرافي نصيباً مهماً من الظاهرة، ففي الزمن الحاضر يشكل هذا البلد موقع هجرة مهماً جداً ؛ حيث وعلى مدار النصف الأول من القرن العشرين، كان بمثابة بلد الوجهة للهجرة الوافدة « immigration » التي استقبلت تدفقات المهاجرين للمستوطنين الأوروبيين على نطاق واسع من عدد من البلدان الأوروبية (Khachani, 2011)، خاصة خلال الفترة « الاستعمارية – فترة الحماية »، ليتحول فيما بعد الاستقلال إلى بلد تصدير للهجرة « émigration » نحو بلدان الاتحاد الأوروبي في إطار الاتفاقيات الثنائية لليد العاملة بين المغرب وفرنسا. ومنذ الستينيات، أصبحت الهجرة المغربية نحو هذه المنطقة ظاهرة مجتمعية كبرى، إلا أنه ومع مرور الزمن لم يعد هذا النمط من الهجرة هو السائد، إذ أنه ومع بداية الثمانينيات سيتحول البلد إلى محطة عبور للكثيرين من المهاجرين الشباب، معظمهم من أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى. ونتيجة لتشدّد المراقبة على الحدود الأوروبية نهاية التسعينيات، سيتجه ميل المهاجرين العابرين إلى الإقامة، والاستقرار بالبلد، ولو لفترة زمنية قد تطول أو تقصر حسب إمكانيات المهاجر



وحسب ظروفه المعيشية (Khachani, 2011, p.5) مع الحفاظ على مشروعه الهجروي الأول، الذي هو العبور إلى القارة الأوروبية.

وتبعاً لهذا الزخم الذي أنتجته الظاهرة بالمغرب خلال القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين، أضحت الهجرة إحدى أهم القضايا التي تشغل اهتمام البحث العلمي بمختلف الشعب والتكوينات : من جغرافيا، وسوسولوجيا، وأنثروبولوجيا، وسيكولوجيا، وغيرها، نظراً للتأثير الذي أحدثته كظاهرة على الديناميات الاجتماعية، والتي مست شتى مستويات الحياة السياسية، والاقتصادية، والمجالية، والاجتماعية، والثقافية، للمجتمع المغربي (Mghari, 2009) كجماعة بشرية تتميز بتنوع ثقافتها، وأعراقها، وأفرادها.

ورغم قدم الظاهرة - نسبياً -، ورغم انتشارها بأغلب مدن البلد الكبرى منها على وجه الخصوص، إلا أنها لم تعتبر موضوعاً محدداً للبحث العلمي بالمغرب، إلا مع بداية التسعينيات من القرن الماضي، أي منذ حوالي ثلاثة عقود فقط (Mouna, et al. 2017, p. 5).

ويعود هذا الاهتمام الأكاديمي المتأخر - نوعاً ما - إلى الحركية التي شهدتها الهجرات نحو أوروبا عبر المغرب ومنه، خلال الثمانينات، وبداية التسعينيات، إضافة إلى التزايد الملحوظ للانشغال السياسي للدولة بالظاهرة، خصوصاً مع التحولات التي بدأت تطرأ على خصائص المسار الهجروي للمهاجرين، حيث سيتحول هذا الأخير من بلد تصدير للهجرة، إلى بلد عبور، ومنها إلى بلد استقرار وعيش للكثير من المهاجرين القادمين من بلدان واتجاهات مختلفة (Khachani, 2006) : أوروبيين متقاعدین، آسيويين، وبخاصة الأفارقة جنوب الصحراء، نتيجة لسياسة إغلاق الحدود التي اتخذتها السلطات الأوروبية (Mouna, et al. 2017, p. 5)، والتي ستضطر المغرب إلى تغيير سياسته في مجال مواجهة الهجرة، والعمل على تحيين ترسانته التنظيمية والقانونية (Khachani, 2016, p. 9)، الأمر الذي سترافقه مجهودات علمية كبيرة أسفرت عن نتائج مهمة يمكن تلخيصها فيما يلي.

تبني الاهتمام العلمي بالظاهرة بداية المقاربة الجغرافية، والتي ركزت بحوثها على العلاقة بين الهجرة والتنمية، من خلال التأثير الذي تحدثه على البلد الأصلي، وبالضبط دور المهاجر في التنمية المحلية (Charbit, 2019)، باعتباره شريكاً أساسياً في التنمية الاقتصادية لمنطقته الأصلية، عن طريق التحويلات المالية، والاستثمارات، وكذا العمل الجماعي الذي يؤسسه أو يشارك في تأسيسه (Chaef, et Gonin, 2005, pp. 10-18).

ومع تطور الزخم الهجروي بالمغرب وتغير موقعه من بلد مصدر للهجرة، إلى بلد عبور واستقرار لفئات مختلفة من المهاجرين القادمين أساساً من بلدان أفريقيا جنوب الصحراء، ستتجه البحوث العلمية في المجال القانوني-الحقوق، إلى البحث في الترسنة القانونية التنظيمية لحركية المهاجرين التي وضعتها الدولة المغربية، وبخاصة فيما يتعلق بهجرة الوفود « L'Immigration au Maroc »، حيث أسفرت نتائج البحوث المنجزة حول القانون 02-03، عن كون هذا الأخير كشف عن التوجه السياسي للمغرب كبلد يكتف جهوده في اتجاه مقارنة أمنية تزكي السياسة الأوروبية فيما يخص « تشديد المراقبة على الحدود»، وهو الأمر الذي دفع البلد للعب دور « الدركي للحدود الأوروبية (Mouna, et al. 2017, p. 7) ».



البحث العلمي القانوني-الحقوقى سيركز فيما بعد على التوجهات الجديدة للسياسة الهجرية منذ 2011، والتي ستعلن عن محاولة « محتشمة » للانتقال من المقاربة الأمنية، إلى مقاربة مؤسسة على الإدماج وعلى ضمان حقوق المهاجرين، غير أن هذه المحاولة لم تستطع تجاوز الهاجس الأمني، كما أن معظم الإجراءات العملية المتخذة لتنزيل تلك السياسة/الاستراتيجية كانت تطمح في الأساس إلى « تلميع » صورة البلد بتبني نهج إنساني حقوقى، خصوصا تحت ضغط الدول الأوروبية، والهيئات العالمية، والوطنية لحقوق الإنسان، في التعامل مع المهاجرين، بما يتماشى والصورة التي تنوي الدولة إظهارها عن نفسها فيما يتعلق باحترام حقوق الإنسان (Ferrie, 2020, pp. 109-113).

إن اعتماد مقاربة قانونية في « تسوية أوضاع المهاجرين القانونية »، لا يعكس أوضاعهم المعيشية، ولا يغير من نظرتهم للمغرب، ولا يغير من نظرة المغاربة لهم، فرغم تغيير اسم المرحلة الثانية من عملية التسوية، من « عملية تسوية الوضعية القانونية للأجانب في وضعية غير قانونية » إلى « الشطر الثاني من عملية إدماج الأشخاص في وضعية غير قانونية » (Alioua, et al. 2017, p. 56)، فإن الأمر لا يعدو كونه مجرد « شرعنة » لتواجد هؤلاء المهاجرين على الأراضي المغربية، فيما لا يحقق الإدماج الفعلي لهم كأفراد، أو كأسر في الحياة السوسيواقتصادية، والسياسية، أو يمكنهم من الاستفادة الفعلية من الخدمات الاجتماعية (الصحة، التعليم، السكن...) وإن تحقق ذلك نسبيا، فلا يمكن له أن يعكس النظرة للمهاجر « الأفريقي – الأسود » (Mourji, et al. 2016, p. 13)، التي يحملها المغربي حوله – خصوصا – فيما يتعلق بالعلاقات الاجتماعية، والاختلاط الاجتماعي، والسكن (علاقة الجوار السكني).

فبالرغم من الإعلان عن الاستراتيجية/المقاربة « الجديدة » للهجرة واللجوء، من طرف « أعلى سلطة بالبلاد سنة 2013 »، ورغم الإجراءات المتخذة لتنزيل هذه المقاربة، كالاستراتيجية الوطنية للهجرة واللجوء (SNIA)، ورغم الإعلان عن عملي التسوية القانونية لوضعية المهاجرين، وتمكينهم من بطائق الإقامة، والسماح لهم بالاستفادة من الخدمات العمومية الأساسية : كالشغل، والتعليم، والصحة، والسكن، إلا أن ذلك يبقى مجرد إعلان عن مشاريع ونوايا سياسية تطمح من خلالها البلاد إلى التموقع كقوة جبهة بأفريقيا (Ferrie, pp. 109-113)، ولا يعبر حتما عن تحقيق الإدماج الفعلي للمهاجر في النسيج الاجتماعي للعلاقات والثقافة المغربيتين.

إن « الإرادة السياسية للدولة المغربية » فيما يخص المهاجر الأفريقي الوافد، تفتح أمامه إمكانيات وتسهيلات لولوج التراب المغربي، وتمنحه شرعية التواجد والإقامة، ولكنها لا تستطيع إدماجه ثقافيا، أو تصنع منه إنسانا مقبولا ومعترفا به كفرد بين المغاربة. إن هذا الأمر ؛ أي القبول الاجتماعي-الثقافي لا يرتبط إطلاقا بالإجراءات السياسية الفوقية، ولا بقضية « أوراق ثبوتية » تشرعن وجوده القانوني على التراب المغربي، ولكنه في الواقع يرتبط بثقافة، وبوعي، وسلوك ينم عن القبول وعن تقبل الآخر القادم، والمختلف ؛ وعي يعترف بالمهاجر كذات، وكسلوك، وكثقافة، ويزج عنه كل تصنيف أو وصم أو تمييز، وهو ما يؤشر على محدودية المقاربة القانونية، ويدفعنا إلى تجاوزها رغم أهميتها ورغم ما تمكن المهاجر منه حقوقيا وقانونيا.

أما بخصوص المقاربة السوسيولوجية، فستتجه البحوث العلمية حول الظاهرة إلى الاهتمام، بالأوضاع الاجتماعية للمهاجرين، مركزة على دوافع وعوامل الهجرة، ومسارات المهاجرين، وظروف الهجرة، وبخاصة ظروف العيش المرتبطة بالاستقرار « المؤقت » (Khachani, 2016, p. 7). هنا يؤكد المهدي عليوة أن المغرب أصبح معلما رئيسيا للمهاجرين من



جنوب الصحراء الكبرى، الذين يسعون لمغادرة القارة الأفريقية. وبما أن مدة - المرحلة المغربية - غير محددة مسبقا، فإنهم بحاجة إلى البقاء، والعمل، والحصول على جميع أنواع المعلومات اللازمة لمواصلة « مغامرهم ». ففي المدن الكبرى للمملكة حيث يتوقفون، يبني هؤلاء المهاجرون روابط اجتماعية أساسية مع المهاجرين الذين استقروا سابقا، أو مع السكان المحليين. وهذه الطريقة يتم إنشاء نسيج اقتصادي قائم على الحيلة/الترفيع والتجول (Alioua, 2013).

ومن بين أهم المواضيع التي ستشغل البحث السوسيولوجي، خلال العقدين الأخيرين من الألفية الثالثة، تلك المتعلقة بقضايا التفاعلات بين المهاجرين والمغاربة « السكان الأصليون » « les interactions avec les » (AMERM, 2008) « autochtones »، وقضايا التمثلات الاجتماعية حول المهاجرين الوافدين، حيث سيتجه العمل نحو تجميع معطيات كمية وكيفية بهدف بناء تصور عن طبيعة المهاجرين الوافدين، وعن مساراتهم، وظروف هجرتهم، ودوافع الهجرة، والأهم من ذلك ظروف العيش بالمغرب وعلاقتهم بالمغاربة (Mouna, et al. 2017, p. 8).

وقد شكل المهاجرون الأفارقة جنوب الصحراء العينة التقليدية لمثل القضايا المذكورة، غير أن الاهتمام العلمي بهذه الفئة من المهاجرين، ظل حبيس نظرية هجرة العبور « la migration de transit » بالرغم من مؤشرات الاستقرار التي أضحت بادية للعيان « devient visible/la visibilité »، من خلال (الزواج من السكان الأصليين، الأنشطة الاقتصادية، وغيرها) (Mouna, et al. 2017, p. 8)، الأمر الذي صار معه تغيير المقاربة العلمية في تناول الموضوع أمرا يفرض ذاته بامتياز.

إشكالية البحث

إن المغرب اليوم لم يعد بلد عبور أو بلد تصدير للهجرة فقط، وإنما أضحي بلد الوجهة، والاستقرار، الأمر الذي نتج عنه ابتكار أساليب واستراتيجيات كثيرة للانخراط، والاندماج في المجتمع المغربي، اقتصاديا، واجتماعيا، وإلى حد ما ثقافيا، هذا الأخير ؛ أي الاندماج الثقافي، هو ما سيكون موضوع البحث الجاري.

فإذا كانت جل الدراسات، قد حاولت البحث في أشكال، وأنماط، ومسارات الاندماج، بناء على معايير اجتماعية : كالولوج للتعليم (Soulay, 2017, pp. 23-31)، والتطبيب، والسكن (Lachhab, 2017, pp. 55-63). أو معايير اقتصادية : كالانخراط في سوق الشغل (Polistena, 2017, pp. 35-44)، ومزاولة العديد من الأنشطة الاقتصادية، ومستوى الدخل. فإنها لم تتجاوز بذلك المقاربة التقليدية لظاهرة الهجرة والمهاجر، كما أسست لها مدرسة شيكاغو، حيث بقيت حبيسة مفاهيم: (الاندماج، التفاعل، العلاقات الاجتماعية وغيرها)، مختزلة بذلك المهاجر في مجرد عنصر/فرد يكفي أن يسكن، ويشغل، ويتمدرس، أو يستفيد من الخدمات الطبية، أو يشارك سياسيا، للاستنتاج أنه قد حقق الاندماج، واخترق شبكة العلاقات الاجتماعية والثقافية، وأضحى جزء من المجتمع، ومن كيانه المعاش، كعنصر مقبول اجتماعيا، وثقافيا، بحيث لم يعد وجوده يثير أي اهتمام أو يدعو إلى التصنيف، والتمييز في كثير من الأحيان.

والواقع أن التفكير في وضعية المهاجر اليوم، ينبغي أن يتجاوز المفاهيم الكلاسيكية للظاهرة، فليس يكفي أن يندمج الفرد من خلال الحصول على بطاقة الإقامة، أو على سكن، أو عمل، أو فرصة للتعليم، حتى نقول بأنه قد تم قبوله فعلا



في المجتمع وصار كأي فرد من « المغاربة - السكان الأصليين ». فتلكم ليست بمؤشرات تدل على القبول الاجتماعي والثقافي للمهاجر الوافد « indices de l'acceptation sociale et culturelle de l'immigré »، بقدر ما تدل عن مجرد عوامل مساعدة تسمح له بالعيش، وتضمن له الاستقرار والاستمرارية، وحفظ البقاء المادي للجسد، في كنف بلد الإقامة، فيما لا تخول له بالمقابل أن يصيرا واحدا من أفراد المعنى الثقافي للكلمة. وهنا أستحضر دراسة (Berriane, et Aderghal, 2010, p. 20) أجراها كل من محمد يريان ومحمد أدغال، بفاس والتي اهتمت بقضية وفود واستقرار مهاجرين بهذه المدينة، خلاصا فيها إلى أنه رغم العلاقات التي بينها المهاجر الأفريقي بالمدينة مع السكان المستقرين، ورغم تمكنه من الحصول على سكن وعمل، وممارسة الرياضة رفقة الفاسيين أو ممارسة عقائد دينية بالمساجد، فإن العلاقات مع المجتمع الفاسي لم تتجاوز البعد التجاري، التي تتجلى في توفير السكن، أو في بعض الوظائف غير المستقرة والمنخفضة الأجر. وحتى الممارسات الرياضية، أو الدينية وإن كانت تعطي فرصا لإقامة رابطة مع المغاربة، فإن هذه الرابطة تقتصر على المساحة التي أدت إليها، أي المسجد أو ملعب كرة القدم، وهي علاقات لا تتجاوز الأقلية القليلة من المهاجرين الأفارقة، ولا يمكن اعتبارها أساسا للقول بقبول المهاجر فعلا.

فأن يصير المهاجر واحدا من أفراد المجتمع، ينبغي أن يتجاوز الأمر مفهوم الاندماج « l'intégration »، إلى مفهوم أكثر دقة وتعبيرا عن الانخراط الفعلي في نمط عيش المجتمع وتقبل أفراد له، كفرد « يشبهنا nous ressemble »، أي؛ أنه لم يعد يثير الانتباه، وأنه انتقل من وضع « المرئي le visible »، إلى وضع « اللامرئي l'invisible »؛ أي الولوج للشرعية الاجتماعية للتواجد في المكان والزمان المغربيين. « Occuper une place sociale légitime dans le temps et l'espace marocain »، ولناخذ مثالا للوعي بهذا التمييز بين المرئي واللامرئي، في واقعنا الاجتماعي المغربي: إذ نجد أن فردا مغربيا « أسود البشرة » لا يثير نفس رد الفعل عندما يتعلق الأمر بـ: « أسود البشرة » من بلد آخر.

إن الأمر هنا يتعلق بمسألة « نظرة شاذة » « un regard décalé de l'Autre » وتمثل اجتماعي للأجنبي/الغير « البراني »، « l'étranger »، من حيث هو مختلف مظهريا، وثقافيا، ولغويا، ودينيا، وحتى في السلوك، وطريقة المشي، فنعتبره على لسان جوليا كريستيفا J. KRISTEVA « الغريب القادم من مكان غريب » (KRISTEVA, 1988, p. 7) ويظل على هذا النحو يسكننا على نحو غريب، وينبغي أن يظل تحت ناظرينا مرئيا بالكيفية التي تسمح لنا بمراقبته، وضبطه، وتمييزه، وتصنيفه، والابتعاد منه بأكبر مسافة اجتماعية وثقافية ممكنة، حتى وإن استقر بيننا، واشتغل، وسكن، وتمدرس، واستفاد من جل الخدمات الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، التي يمكن أن ينخرط فيها معنا.

إن هذا المهاجر/الوافد/الغريب، كائن بيننا ومندمج في أنشطة اقتصادية، واجتماعية ضرورية لحفظ بقائه، ولكنها لا تذهب بالأمر حد القبول الاجتماعي والثقافي الذي يحدده التنازل المجتمعي لهذا المهاجر عن الكثير من مؤشرات الصد، والرفض، التي تحافظ على المسافة الثقافية قائمة بينهما. والأهم من هذا الأمر، فإن إشكالية القبول الاجتماعي والثقافي لا تقتصر على نظرة المجتمع للمهاجر، وإنما تتحدد بشكل أوضح عندما ندرك أن تمثل المهاجر نفسه لذاته ولهذا المجتمع هي التي تحدد عناصر القبول والرفض، ذلك أن هذا الوافد لا يأتي « صفحة بيضاء »؛ ويحاول التعامل مع الثقافة الجديدة – كما يعتقد – وإنما يحمل ليس فقط جسدا بيولوجيا يتنقل في المكان والزمان بل هو جسد ثقافي واجتماعي ينتهي قبليا لمجتمع « مغاير » بكل حمولاته التي تتجلى في حركيته وفعله الاجتماعي، حاملا في نفس الوقت خلال حضوره للمجتمع



المستقبل تصورا مسبقا عنه، وارتسامات أولية تساهم بقدر مهم في بناء فكرة القبول من الرفض لديه. الأمر الذي يبني السؤال التالي : هل استقرار المهاجر الأفريقي الوافد من جنوب الصحراء الكبرى بالمغرب مؤشرا على قبوله الثقافي والاجتماعي في المجتمع ؟

فرضية البحث

ينطلق هذا البحث من فرضية يعتقد من خلالها أن وصول المهاجر للمغرب أدخله في مرحلة المواجهة، ما يتطلب منه الحذر والتريث في اتخاذ المواقف، وبخاصة فيما يرتبط باللقاء الأولي بالمغاربة، وفي مواجهته لأولى ردود الأفعال، الأمر الذي سينعكس في ردود أفعاله، حيث سيدخل في بداية الأمر في عملية تقييم للوضع، تقييم تصوراته القبلية عن المغرب أمام الواقع الحقيقي، وتجميع للمعطيات، ما أمكن منها لتحديد النمط الذي سيتصرف وفقا له، قبل أن يدخل في مسار بناء العلاقات، وبناء الثقة لدى المغاربة تجاه ذاته، حتى يتمكن من التمتع في هذه البنية الجديدة والمختلفة عن لغته، وثقافته، وسلوكاته، ودينه. ولتحقيق ذلك فإن المهاجر هنا يدخل في تفاوضات مع المجتمع، تضطره في أغلب الأحيان إلى التنازل عن بعض من مبادئه، وخصائصه الشخصية، فيعمل على التعديل في سلوكه ونمط عيشه هادفا إلى خلق نوع من التوافق بين ما لديه من ثقافته وما يجده في ثقافة المجتمع الجديد، في محاولة لتجاوز الصعوبات والاستفادة من التسهيلات. وبناء على هذا الافتراض يمكن القول إن القبول الاجتماعي-الثقافي للمهاجر هو في الواقع قبول مشروط بتصوير المغاربة لهذا المهاجر، وللكيفية التي يظهر بها، ويتصرف وفقا لها، وبوضعه الاقتصادي، خاصة وأن الفكرة الأولية التي انطلقنا منها في إنجاز هذا البحث أن القبول الاجتماعي يأتي بعد الاندماج الاقتصادي وتحقيق الذات في مجال العمل، كما يتجلى ذلك أيضا من خلال الوضع العائلي (إن كان متزوجا أم عازبا)، وبمعنى أكثر دقة يمكن القول إنه ليس هناك قبول إلا وفقا للمعايير المغربية في العيش والسلوك.

منهجية الدراسة وأدواتها

يندرج موضوع البحث هذا (القبول الاجتماعي للمهاجر « الأفريقي » بالمغرب) ضمن توجه سوسيولوجي عام هو سوسيولوجيا الهجرة، والتي تهتم بمجموع القضايا والظواهر الناتجة عن الهجرة، أو تلك التي تكون دافعا للهجرة، وكل ما يرتبط بذلك من مفاهيم : « الدافع الهجروي، والمسار الهجروي، والاندماج، والعنصرية، والغربة، والانحراف، والتحضر... وغيرها ».

لقد كانت البداية الفعلية للتناول السوسيولوجي لظاهرة الهجرة، مع الرواد الأوائل لمدرسة شيكاغو، فهم أول من دشّنوا للبحث النظري والميداني في مجالي التحضر والهجرة (المالكي، 2016، ص. 7)، مستفيدين على المستوى الأول، من الإرث السوسيولوجي الأوروبي لدوركهيم، وفيبر، وجورج زيمل، وعلى المستوى الميداني من التطور المطرد لمدينة شيكاغو نتيجة للهجرة الوافدة الكثيفة، حيث سيعملون على ابتكار وتطوير مجموعة من تقنيات البحث الميداني ك (دراسة



الحالة، والملاحظة بالمشاركة، وتحليل محتوى الوثائق الشخصية، وحكايا الحياة، ...)، محددين الميدان كمختبر لبحوثهم في الموضوع (المالكي، ص. 84).

وبالحديث عن الميدان كمختبر سوسيولوجي، فيرجع للمدرسة المذكورة سالفًا، الفضل في تأسيس، وتطوير، وتطبيق أهم التقنيات التي تعتمد فيما نسميه: « البحث الميداني السوسيولوجي »، ويعتبر روبرت بارك R.PARK في هذا المستوى أول عالم اجتماع يعمل على تبني المقابلة في البحث السوسيولوجي إذ يقول: « إن عالم الاجتماع لا ينبغي أن يهتم بالأحداث في حد ذاتها، بل عليه أن يعتبرها أشياء واقعة؛ وعليه أن يهتم أساسًا بمواقف الأشخاص المعنيين كما تنعكس في رواياتهم المتباينة لنفس الحدث التاريخي. عليه أن يهتم في الواقع بكل ما يمكنه مساعدته على توضيح تلك المواقف وعقلنتها أكثر» (المالكي، ص. 86)، وهنا يتضح التركيز الكبير لبارك Park، على أهمية الانطلاق من الميدان، ومن بين ذلك الاهتمام أكثر بمواقف الأشخاص-المبحوثين، والعمل على توضيحها باعتبارها روايات تعكس واقعا معاشا، وتجارب حياتية، وليست مجرد أحداث ووقائع تحمل معناها في ذاتها.

لقد كان للتيار التفاعلي الرمزي « interactionnisme symbolique » المنبثق عن الاتجاه الفلسفي البراغماتي الذي وجه التفكير الفلسفي نحو الاهتمام أكثر بالحياة الاجتماعية، والانخراط الفعال في فهم وتحليل الأفعال الاجتماعية المؤدية للتغيير، انطلاقًا من مبدأ أن فلسفة اليوم ينبغي أن تكون « فلسفة فعل » « une philosophie d'action »، حيث كان لهذا التيار تأثيرًا كبيرًا في التوجه السوسيولوجي نحو الفاعل الاجتماعي « acteur social »، بدل البنية الاجتماعية « structure sociale » كما حاول إلى ذلك رواد التيار الوضعي « le positivisme ».

إننا هنا أمام توجه سوسيولوجي يعتمد منهجية تنطلق من الفرد، باعتباره الفاعل الاجتماعي الأساسي، والمرجع الأهم لفهم الظاهرة المدروسة؛ ذلك أن الفرد هو الذات الفاعلة، والمنتجة للمعنى، فهو « يدرك وضعيته، وقيم العراقل التي يعتقد أنه سيواجهها، والبدائل التي يرى أنها مفتوحة أمامه، ولا يمكننا أن نفهم حقل الفرص المتاحة، والثقافات الفرعية للانحراف، والمعايير الاجتماعية، وغيرها من التفسيرات الجماعية لكل سلوك إلا إذا اعتبرناها من وجهة نظر هذا الفاعل» (المالكي، ص. 87).

بناء على هذا المنظور، ونظرًا للارتباط القوي لموضوع هذا البحث، بالإرث السوسيولوجي لمدرسة شيكاغو، وبخاصة فيما يتعلق بالبحث الميداني، فقد ارتأينا أن نضع الفرد-المهاجر-الوافد في صلب البحث، واعتبار كلامه المرجع الأول لفهم تجربته الهجرية بالمغرب وعلاقته بالمغاربة، مبتغين رصد تمثله حول وضعيته، وكذا المعنى الذي يعطيه هو ذاته لهذه الوضعية ولمفهوم القبول الاجتماعي.

وينبع هذا الخيار المنهجي من فكرة أساسية مفادها أن فهم وتحليل دلالات ومعاني الأفعال الاجتماعية، يكمن في النفاذ لهذه الدلالات والمعاني، من خلال رصد وفهم المعنى الذي يعطيه الفاعل الاجتماعي ذاته للفعل، وكذا التقييم الذاتي لوضعيته، وعلاقاته، ومواقفه، وردود أفعاله، على اعتبار أن الأمر هنا يتعلق بكائن إنساني يمتلك القدرة على التأمل، والتقييم، والإبداع، والفعل، ورد الفعل، وليس فقط مجرد كائن سلبي « inactive »، خاضع لقوى اجتماعية لا يملك أي سيطرة عليها (المالكي، ص. 81).



إن القول بالدلالة التي يعطيها المبحوث ذاته للفعل الاجتماعي، لا تنبع من فراغ، وإنما تنتج عن سياق تفاعلي تكون فيه الذات الفاعلة دوماً في علاقة مع باقي الذوات الأخرى، ذلك أن العلاقة مع الغير تشكل جسراً للتبادل وخلق المعنى، والتنظيم وإعادة التنظيم، للأفكار والتأويلات، والسلوك الفردي؛ أي أننا في الواقع أمام خشبة للتفاعل الاجتماعي، ومسرح لتبادل التأويلات والمعاني بحسب تغير السياق، وبحسب طبيعة الغير ومدى التقارب، أو التباعد في الدلالات والمعاني الممنوحة للرموز الاجتماعية خلال عملية التواصل.

وما دام الأمر في هذا البحث يتعلق بعلاقة بين ذوات من ثقافات مختلفة، فإن التأويل الذي ركزنا عليه سيكون من منظور المبحوث، مما سيمكننا من الوقوف على المعاني الذاتية التي سيعطيها المبحوث لمؤشرات القبول الاجتماعي، وبالمقابل مؤشرات الرفض، باحثاً في كلامه عن استراتيجيات التكيف، والتأقلم مع ثقافة الأغلبية، وتكسير الحدود الثقافية، اعتباراً لكونه الوافد على ثقافة الأغلبية، وكذا لكونه في الموقع الأكثر تأثراً بسلطتها.

ولتحقيق ذلك فقد تم اختيار العمل بالمنهج الكيفي، اعتماداً على تقنية المقابلة شبه الموجهة « l'entretien semi-directive »، مانحاً بذلك المساحة الأكبر في التعبير للمبحوث ذاته.

عينة الدراسة

أجريت المقابلات مع عينة من عشرة مبحوثين ضمنهم ثلاث إناث، من بلدان مختلفة: (السنغال، والكاميرون، وغينيا، والكونغو الديمقراطية، والغابون، وأفريقيا الوسطى)، تراوحت أعمارهم/ن بين الواحد والعشرين، والخامسة والثلاثين سنة. يشغل البعض منهم في مراكز الاتصال، والبعض الآخر يمارسون مهنة كباعة متجولين. اثنان من بينهم متزوجان ولهم أطفال، واحدة أم عازبة لطفلين، والبقية عزاب. تراوحت مدد إقاماتهم/ن في المغرب بين السنتين والثلاثة عشر سنة. وقد كان لاختيار هذه العينة من بلدان، وأعمار، وحالات اجتماعية مختلفة، ما يبرره في سبيل تنويع مصادر المعلومة، الأمر الذي مكننا من بناء صورة واضحة عن وضعية « المهاجر الأفريقي » على اعتبار أن أغلب المغاربة لا يميزون بين المهاجرين ولا يدركون الاختلافات بين ثقافتهم الأصلية، معتبرين أي وافد ذو « بشرة سمراء » يمثل « الأفريقي »، أو « الأفارقة » « les Africains »، وفي أحسن الأحوال « السنغاليين » كتميز يخصص الوافدين من السنغال. وهو الذي يضع أغلب المبحوثين أمام نفس الوضع. الأمر الذي ستتم تزكيته في أقوالهم خلال المقابلات.

اعتمدنا في تجميع المعطيات، على طريقتين من التواصل مع المبحوثين :

في المستوى الأول : أجريت المقابلات مع ثلاثة مبحوثين بشكل مباشر، بمقهي عمومي بمدينة الزمامرة، وقد جاء ذلك، نتيجة لترددهم على نفس المقهى الذي اعتدت ارتياده، لتسويق بضاعتهم كباعة متجولين، حيث إنه وبعد « دردشات أولية مفتوحة »، اقترحت عليهم المشاركة في دراسة تهم وضعيتهم وعلاقتهم بالمغاربة، فأبدوا اهتماماً ملحوظاً للحديث عن الموضوع، وهنا تحضرني ردة فعل ألفا alfa من السنغال، الذي استجاب للاقتراح قائلاً : « ah oui, oui, c'est important de discuter notre situation ici au Maroc, parce que rare les gens qui veut entendre nos problèmes, nos difficultés » ، بما مفاده أن الأمر فعلاً مهم، وهو مستعد للحديث لمن سينصت لمشاكله، والصعاب التي يواجهها. فيما أبدا المبحوثون الآخرون، بعض التردد في البداية، طارحين أسئلة من قبيل علاقة البحث



بالإدارة، وإن كان يرتبط بوضعيتهم القانونية، معبرين بذلك عن توجس واضح تجاه مفهوم « البحث »، والذي استدركت فيما البعد تعويضه بمفهوم الدراسة « étude »، مقدما لهم شروحات حول طبيعة هذه الدراسة، بكونها ذات صبغة علمية محضة، هدفها الفهم الدقيق لوضعية المهاجرين ولعلاقتهم بالمغرب والمغاربة، مطمئنا إياهم بكونها دراسة شخصية، ولأهداف العلم والتعلم، ولعلها تكون مفتاحا لكي يدرك القارئ صعوباتهم، ويفهم تجاربهم واستراتيجياتهم في العيش والتأقلم مع الثقافات الأخرى.

وقد اعتمدت في حفظي لكلامهم/ن، على تقنية التسجيل الصوتي بواسطة الهاتف النقال.

أما بخصوص المستوى الثاني : فقد أجريت المقابلات السبع المتبقية عن طريق مكالمات هاتفية، بالاستناد إلى وساطة مغاربة تجمعهم علاقات جيدة بالمبحوثين، ومن خلالهم من مباحث لآخر. وقد لعبت الوساطة هنا دورا كبيرا في كسب ثقة هؤلاء المبحوثين، واختراق مجموعاتهم، حيث سيتحدثون بكيفية أوحى لي بأنهم مطمئنون ومرتاحون جدا، ومنفتحون على الموضوع الذي أكد أغلبهم على أنه موضوع يمسهم بشكل مباشر، ويتمنون لو أن هناك مزيدا من الاهتمام بأوضاعهم وإنجاز الكثير من البحوث التي تستهدف فهمها وإيصالها للجميع.

وقد اعتمدت في حفظ المعطيات على تطبيق رقمي لتسجيل المكالمات، والملاحظ حول تقنية المقابلة عبر المكالمات الهاتفية، بالمقارنة مع المقابلة عن طريق التواصل المباشر، غنى المعلومات والمعطيات التي استقيتها عبر الهاتف، إذ وجدت أن تركيز المبحوث على الموضوع، وعلى التواصل يكون أفضل من المباشر، حيث هناك حركة الناس، والضجيج الناتج عن طبيعة المكان (المقهى). أمر تركيزه المدد الزمنية الطويلة نسبيا للمكالمات الهاتفية بالمقارنة مع المقابلة المباشرة.

غير أن ذلك لا يعني كونها كانت خالية من الصعوبات، فقد كان لضعف الشبكة في بعض الأحيان تأثير على جودة الصوت، كما كان للانقطاع المتكرر تأثير على تسلسل الأفكار وكلام المبحوثين، حتى إن بعضهم كان يطلب تنمة المكالمات في أوقات لاحقة، ومن ضمنهم مباحث غير رقم هاتفه، الأمر الذي وضعني أمام مقابلة مبتورة اضطرني ذلك للبحث عن مباحث آخر والبدية من جديد.

تراوحت المدد الزمنية لإجراء المقابلات بين خمسة وعشرين دقيقة والساعة والعشرين دقيقة في بعض الحالات، كان للمبحوثين الحيز الزمني الأهم في التعبير عن ذواتهم وتصوراتهم، التي تخللتها الكثير من تعابير الأسى تارة، والمرح تارة أخرى. اتخذت وضع المنصب الجيد لهمومهم وشكاويهم طيلة إجراء المقابلات، فيما كان لزاما علي في كثير من الأحيان، أن أنسلخ عن ذات الباحث، وأتحول لمواس، أو مشجع، أو متظاهر بالضحك رغم غياب الدافع الحقيقي لذلك، وهي استراتيجية التذاوت، أو البين-ذاتية « Intersubjectivité » (MERLEAU-PONTY, 1945, p. 145) التي تفرض على الباحث كسر الحدود الثقافية، وتجاوز التباين والاختلاف، نحو بناء جسر التبادل، وخلق وعي مشترك بالتجربة وإدراك متشابه لرموزها ودلالاتها.

أما بعد تجميع المعطيات والذي استغرق مني الأمر لإنجازه ثلاثة أشهر بشكل مستمر ومكثف، من بحث عن إمكانات لاختراق الحدود الثقافية بيني والمهاجرين، وكسب ثقتهم، فقد اعتمدت في عرضي وتحليلي لهذه المعطيات على تقنية تحليل المحتوى أو المضمون، وهو ليس بالخيار الذاتي هنا، إذ إن العمل وفق المنهج الكيفي لا يضعنا أمام أرقام، أو إحصائيات (على أهميتها)، ولكن أمام (كلام، وأقوال، وتصورات، وحكايا لحياوات، وتجارب إنسانية معيشة ..). إن اعتماد



تحليل المحتوى مكثفي من رصد تمثيلات المبحوثين، وتصوراتهم الذاتية لأوضاعهم وعلاقاتهم، كما سمح لي بتشريح مواقفهم، والمقارنة بينها عند الضرورة. أمر استدعى مني الأخذ بعين الاعتبار ضرورة الالتزام الحيادي بالمواقف الذاتية للمبحوثين، وإعطائها معنى ليس انطلاقاً من فهمي الخاص للقول، أو للفعل، وإنما انطلاقاً من التبرير والتفسير الخاص بالذات الفاعلة نفسها.. وهو الأمر الذي نلمسه في العرض الواضح لكلام المبحوثين كما جاء بلغتهم وطرق تعبيرهم، بفواصله، ونقطه، والتي تترجم الصمت والتأني قبل الاستمرار في الحديث بالنسبة لأغلب المبحوثين.

وهنا لابد في الأخير من الإشارة، إلى أن كلام المبحوثين، أو صمتهم، أو ترددهم، أو إعادة صياغة الكثير من أقوالهم، يبدو أكثر تعبيراً في محطات معينة عن أي تأويل محتمل يستهدف العقلنة، أو التنظيم العقلاني، خاصة عندما يعبرون عن مشاعر ذاتية، وليس عن تصورات فكرية حول قضايا معينة. هكذا ارتأيت أن كلام المبحوث في بعض الأحيان يعبر أكثر عن وضعه وشعوره، من التأويل الذاتي له، فاكثفت بعرضه وترجمته، ترجمة تقريبية لا ندعي فيها الدقة بقدر ما نسعى لتقريب المعنى للسان العربي.

نتائج الدراسة ومناقشتها

ينطلق العمل على المعيش اليومي للمهاجر، من هدف محدد، وهو رصد تجربته الراهنة بالمغرب، وعلاقته بالمغاربة، معتمدين على التقييم الذاتي للمبحوثين لطبيعة هذه العلاقة، باعتبارها مؤشراً على تصوره لذاته ولشعوره بمدى قبوله اجتماعياً.

يعتبر اللقاء الأول عاملاً مهماً في بنائه لهذا التقييم، نظراً لما يحدثه من أثر في تصور المهاجر، كونه مرجعاً للكيفية التي سيبدأ بها حياته، وعلاقاته بهذا المجتمع، ذلك أن الأمر لا يتعلق هنا فقط بلقاء بين فردين، وإنما هو لقاء بين ثقافتين مختلفتين، لا يمكن توقع الأفعال من ردود الأفعال فيها. وهو ما قد ينتج عنه حالة التواصل والقبول، والانفتاح والتبادل، والمابين-ثقافي l'interculturel، أو حالة الانغلاق والصد، والرفض، والوصم، والتمييز.

إن اللقاء الأول بالمغاربة، سينعكس على تصور المبحوث، في تقييمه للشعور بالقبول الاجتماعي، ولكنه ليس العامل الوحيد لبناء هذا التقييم، فهناك العديد من المؤشرات، المرتبطة بفضاء العمل، أو بالحياة العامة بالشارع العام، أو في العلاقة بالجيران، أو بـ «مول الحانوت»، وكذا من خلال المساعدات، والصعوبات التي يختبرها المهاجر في حياته اليومية. والتي يلعب فيها سلوكه، وطريقة ظهوره، وتعامله، والتنازلات التي يقدمها، عن طريق التفاوض مع المجتمع دوراً أساسياً في اندماجه أولاً، ثم قبوله ثانياً.

وكما تمت الإشارة إلى ذلك، فإن الشعور بالقبول من طرف المجتمع، لا يمكن أن يتم تقييمه دون الوقوف على طبيعة العلاقة بالمغاربة، باعتبار التقييم العام من وجهة نظر المبحوث لهذه العلاقة، هو المؤشر الأهم لقياس انطباعه عن ذاته وعن حياته بالمغرب.

لذلك فقد عملنا في البداية على رصد طبيعة اللقاء الأول للمبحوث بالمغاربة، ومساءلته حول تقييمه لهذا اللقاء، لننتقل بعدها للتساؤل حول ما إذا كان يشعر بكونه فرداً مقبولاً أم لا، مستشفيين من كلامه مؤشرات القبول، ومؤشرات الرفض



إن هو صرح بذلك، منتهين في الأخير إلى التقييم العام لعلاقته بالمغاربة، وذلك في سبيل رصد انطباعه العام عن هذه العلاقة والكيفية التي يتموقع من خلالها أمام الرفض الذي قد يواجهه في إطارها.

I. اللقاء الأول بالمغاربة : أين تم؟ وكيف كان اللقاء الأول للمهاجر الأفريقي بالمغاربة؟

إن عبور الحدود الجغرافية، ليس المرحلة الوحيدة التي ينبغي على المهاجر اختبارها لولوج التراب المغربي، وإنما هنالك حدود أخرى، يحملها في ذاته، منقوشة على جسده، وهي اللون، والذي يمثل الحدود العرقية في نظر بارك (Park, 1950) (El miri, 2018)، حدود تشكل المرجع الأول للتمييز، وتجعل من المهاجر ظاهراً ومختلفاً ومتميزاً، ناهيك عن جنسيته، أو دينه، أو لغته، إذ يقول مصطفى الميري :

« بمجرد وصولهم إلى ما يشكل المرحلة الأولى قبل دخول أوروبا، بالمغرب، يكتشف هؤلاء المهاجرون أنفسهم أنهم سود قبل أن يكونوا سنغاليين، أو ماليين، أو غينيين، أو نيجيريين، أو إيفواريين. يفقدون إسمهم الأول وجنسيته ولغتهم وهويتهم. هؤلاء المهاجرون الذين يرون أنفسهم مختلفين تماماً عن بعضهم البعض لم يعد يتم تسميتهم إلا من خلال بعض المصطلحات التي توحدهم : « الإفريقيين » (الأفارقة في المغرب، ضمنياً السود)، « لكول » (السود)، « نيجرو »، « عبد »، « زولو »، « مانديلا »، (ليس لذكر بطل النضال ضد الفصل العنصري بقدر ما هو تذكير بحالة السود في جنوب إفريقيا)، « بخوش » (صرصور في المغرب)، « إثيوبيا » (في إشارة إلى المجاعة)، الصومال (في إشارة إلى حالة البلد : الحرب والفظائع التي تميز الحياة) أو حتى « كينغ كونغ » (في إشارة إلى فيلم الغوريلا). كل هذه المصطلحات، التي لاحظناها بطريقة غير شاملة خلال ملاحظتنا على الأرض المغربية، والتي تكون في بعض الأحيان خاصة بمناطق معينة لا نفصل فيها هنا، هي نفس المصطلحات المستخدمة، دون عداة واضح في الشكل، لتمييز القادمين من جنوب الصحراء الكبرى على أساس يومي » (El miri, 2018, pp. 108-109)

الملاحظ حول ما قدمه الميري هنا هو الطابع « السلبي » للمراتفات المستعملة، لوصف المغاربة للأفارقة من جنوب الصحراء من قبيل : « السود، والعبيد، والبخوش، والمجاعة، والحروب، وغيرها » قد نتفق معه في القول بأن الانطباع الأولي للمغاربة عن المهاجر الأفريقي، يتشكل انطلاقاً من النظرة الأولى للون، حيث يختفي التمييز بين الجنسيات والديانات، والأسماء، ولكن الأمر لا يتعلق دوماً بردة الفعل « السلبية »، بقدر ما يمكن الحديث عن أن هناك استثناءات ينبغي أن نقف عندها، عندما يتعلق الأمر بكيفية التعامل في إطار معين خلال اللقاء الأول.

وهنا قد وقفنا في بحثنا عن كون معاملة المغاربة للمهاجر الأفريقي، في أول لقاء، اختلفت طبيعتها حسب كل مباحث، الأمر الذي مكننا من التصنيف بين ردي فعل ترك كل منهما انطباعاً معيناً في ذهن المهاجر، ويتعلق الأمر في المستوى الأول بالانطباع « الإيجابي »، فيما يتعلق المستوى الثاني ب « الانطباع السلبي ».

بخصوص المستوى الأول يقول موسى من غينيا : « ...سأبدأ بغينيا أولاً. لقد تعرفت على بعض الأصدقاء عندما كنت في المدرسة الثانوية، التقينا حول لعبة البلياردو. كنت في نادٍ للألعاب وهناك أصبحنا أصدقاء لأننا غالباً ما كنا نجتمع معاً للعب البلياردو. ولأنني لم أكن أعرفها، فهم الذين عرفوني على هذه اللعبة. هناك ...»

إن القصة بدأت بالنسبة لموسى ببلده الأصلي غينيا، حيث تعرف على بعض المغاربة بنادٍ للألعاب، هناك عندما كان لا يزال طالباً بالمرحلة الثانوية، موضحاً أن هذا اللقاء مكنه من بناء صداقة معهم تبادلوا خلالها أسرار لعبة البلياردو، التي كان يجهد قواعدها، لتنتقل بعدها اللقاءات في فترات أخرى، كانت مساحات زمنية لمشاركة الوجبات الغذائية، وتبادل الزيارات إذ يضيف : « ولأن الآباء كانوا تجاراً، فقد كانوا يأتون غالباً بسياراتهم، نلتقي هناك، نلعب جميعاً، نتشارك الهامبرورجر، وهكذا أصبحنا أصدقاء، آتي عندهم، ويأتون عندي...»



لكن ألا يتدخل سياق اللقاء هنا كعامل مؤثر في طبيعة المعاملة، علما أنه قد تم ببلد المبحوث الأصلي، حيث يحضر فيه المستقبل كمستقبل، والعكس صحيح ؟

إن لسياق ومكان اللقاء بالضبط دور مهم في تحديد طبيعة التفاعل الأولي بين المهاجر و « المستقبل » أينما وجد سواء ببلده الأصلي أو هنا بالمغرب، ويتعلق الأمر بكل من : ألفا Alfa من السنغال، وشاد schade من أفريقيا الوسطى : يقول هذا الأخير : « نعم ، على أي حال. في المطار استقبلت استقبالا حسنا. قال مرحباً، سلام، كيف حالك؟، أهلاً بك في بيتك، هذا هو انطباعي الأول. كان اللقاء الأول مرحاً وكان ... هذا ما قلته....»

ومعبراً عن نفس الانطباع يقول ألفا Alfa : « نعم، لقد كان جيداً لأننا تحدثنا بشكل جيد، أترى ؟ هناك الاستقبال... الشرطة، كما ترى رجال الزي الرسمي، إنهم لطفاء جداً معي...، فهم يحترمونا كثيراً أيضاً. لقد تم قبولنا بشكل جيد....» ويلاحظ من خلال كلام المبحوثين أن الاستقبال كان جيداً، والتركيز هنا على كلمة استقبال « accueil » التي وردت في قولهما معاً، بدل كلمة لقاء « rencontre »، فالداعي لاستعمال مرادفة « الاستقبال » بدل « اللقاء » هنا له ما يبرره، إذا ما علمنا من خلال كلامهما أن الأمر يتعلق بالمطار، فقد كان ولوجهما للحدود المغربية عبر مؤسسة المطار، حيث تم استقبالهم من طرف أفراد « رسميين »، يزاولون مهنة رسمية، ويرتدون الزي الرسمي، وليس من طرف أفراد « عاديين » ؛ ذلك أن الأمر يتعلق هنا باستقبال رسمي وفقاً لتدابير وإجراءات محددة سلفاً، لا ينبغي فيها أن تأخذ معايير اللون، أو الجنس، أو الثقافة، أو اللغة بالحسبان. الأمر الذي يعتبر أساساً للتعامل في حالة ما تم اللقاء في ظروف مغايرة، ومع أناس عاديين لا يمثلون أية مؤسسة، ولا يخضعون سوى لرقابة ثقافتهم المرجعية.

يقول مالك Malek من السنغال : « لم يكن شعوراً جيداً. لقائي الأول. مع أول مغربي، كان بمثابة خيبة أمل. نعم لأنني عندما غادرت المطار. سألت أين توجد محطة القطار. لم يجيني. قال لي لا، لا، لا، لا. وهذا لم يكن جيداً....» وهنا يتضح أنه بمجرد مغادرة سياق المطار اختلقت القصة بالنسبة لهذا المبحوث، حيث سيجد الصدد والرفض، بدل الاستقبال الذي لقيه داخل مؤسسة المطار ؛ صدد تجلى في عدم الرد حتى عن أبسط الأسئلة التي كان من الممكن الإجابة عنها لو تعلق الأمر بمغربي مثله. ولكن عندما يتعلق الأمر بمهاجر وافد جديد تصبح الأمور أعقد نوعاً ما، يرفض الناس الحديث لك يقول مالك متكلماً عن تجربته الأولى مع المغاربة : « حقاً، تعلم أنك إن كنت وافداً جديداً، فالأمر ليس بالسهل، اللقاء الأول، الناس، لا يحدثونك حتى....»

ولعل الأمور تصبح أعقد بكثير عندما يكون الولوج للتراب المغربي بطريقة غير نظامية، الأمر الذي يتجلى في تجربة جوفيا Jovial، من الكاميرون :

« لقد كان لقاء مافيزيا، وليس مجرد لقاء، كيف أقول ذلك؟ مافيزيا، لأنه، ما الذي حدث؟ لأنه إن كنت تعرف مسار المهاجرين نحو المغرب، إنهم يدخلون من كل مكان، من وجدة قادمين من الجزائر.. نعم اللقاء كان مافيزيا، لأنه عندما دخلت المغرب، كنت وحيداً، كان الأمر معقداً نوعاً ما، دخلت بالليل، مشيت من الجزائر إلى المغرب، من الخامسة مساءً حتى الخامسة صباحاً، مشيت حتى الخامسة صباحاً، مشيت، وعندما دخلت المغرب، كنت على الطريق المعبد، رأيت سيارة تنطلق، كان بها مغربيان، من الظاهر أنهما كانا يعملان في نقل المهاجرين، نحو مركز مدينة وجدة، ... عموماً وفقاً لأمامي، طلبت منهما أن يقلاني إلى وسط المدينة، قالوا لي مائة يورو، توسلتهما، لأنه لم يكن معي غير خمسين يورو، وهكذا أقلاني...»



تعتبر هذه التجربة التي حكى عنها جوفال، عن كون الطريقة التي ولج بها المهاجر الحدود، وكذا السياق الذي تم فيه اللقاء الأولي يحددان طبيعة اللقاء، ويحددان كذلك الانطباع الأولي عن العلاقة بالمغاربة من حيث هو انطباع لم يكن بالجيد بالنسبة له إذ يضيف : « صراحة لم يرق لي اللقاء الأول بالمغاربة... »

هذا الانطباع قد يكون أساسا لطرح العديد من التساؤلات لدى البعض الآخر من المهاجرين، فيدفعهم للتريث في الإقدام عن التواصل والانفتاح، وهو الأمر الذي تعبر عنه دانيال Danielle من الكاميرون بالقول : « لم يكن لقاء وديا حقا. لن أقول أنه كان هناك اشتباك، لكنك تشعر أنه لقاء يستوجب إثارة الكثير من الأسئلة... »

هذه الأسئلة، نابعة ليس من لقاء بين فردين أو مجموعة أفراد وحسب، وإنما بين ثقافات مختلفة، تتواجه فيما بينها خلال هذه المساحة المكانية والزمنية، تضيف دانيال : « حقيقة أن لدي ثقافتني في الخلفية، يجعلني الأمر أرى الواقع إنطلاقا من ثقافتي، لذلك كنت ذلك. كان الأمر مثل صدمة ثقافية... »

هذه الصدمة ناتجة عن اختلاف المعايير الثقافية، حيث لا شيء تقريبا متشابه، وليس هناك ما يشترك فيه هؤلاء الأفراد ليتخذوه مرجعا للتواصل أو التبادل، يقول ألفا alfa من السنغال معبرا عن هذا الأمر : « نعم، عندما رأيت الناس هنا، كنت في عالم آخر، ذلك أن الثقافات ليس نفسها... »

فما الذي يوحي به هذا القول ؟

إن ما يوحي به كلام الباحثين بخصوص اللقاء الأولي بالمغاربة، هو أن العلاقة الأولية بين المهاجر والمغربي، تتجاوز إشكالية الحدود الجغرافية إلى حدود ثقافية تستدعي إثارة الكثير من الأسئلة والتريث، والاستكشاف، في سبيل فك رموز وشيفرات الثقافة الجديدة، بحثا عما من شأنه أن يسهل مأمورية التواصل والانخراط في المجتمع. غير أن الانطباع الذي يمكن أن يتركه هذا اللقاء منذ الوهلة الأولى تكون له انعكاسات فيما يرتبط بالشعور بالقبول داخل المجتمع أو يكون سببا في الشعور بالرفض، والصد الاجتماعي. كما يمكن أن يكون أساسا للحكم العام على العلاقة بالمغاربة، ومرجعا للكيفية التي سيتعامل بها المبحوث لاحقا. وهو ما سنعرض له فيما يلي.

II. تجربة المعيش اليومي للمهاجرين مؤشرات القبول ومؤشرات الرفض

تراوحت التصورات العامة للمبحوثين عن الشعور بالقبول داخل المجتمع بين التأكيد على كونه مقبولا بصفة مطلقة، وبين من يرى أن المسألة تبقى نسبية، حيث يستشعر القبول في مستوى معين دون غيره، ومن يعتبر أن الأمر يبقى مفتوحا للنقاش. يقول موسى من غينيا : « الجميع، الجميع يقبلني ... لذلك على المستوى الاجتماعي، نعم، نحن مقبولون. على المستوى الاجتماعي، ليست لدي أية مشكلة مع مغربي، لدي أصدقاء فقط، وليس لدي غير الإخوة ... أنا شخصيا، 100 في المائة، أنا مقبول في كل مكان هنا في المحمدية... الجميع أصدقائي، أقول لك الجميع في المحمدية، كل من يعرفني يدعوني موسى. الجميع »

فيما يقول مالك من السنغال : « قلت ؟ نعم، نعم، لأنني لا أستطيع العمل يومين أو ثلاثة أيام، ولا ألتقي بصديق يدعوني لشرب القهوة معه. لا يمكنني العمل لمدة يومين دون أن يطلب مني أحدهم أن أكل معهم. حتى أن هناك آخرين يدعوني لأكل الكسكس، لذلك أنا أعتبر نفسي بهذه الطريقة مقبول في المجتمع المغربي. آه نعم، هذا ما أشعر به... »



أما أحمدو Ahmadou من السنغال فيقول : « أنا مقبول بشكل جيد. أنا جيد لأنني مقبول. حتى في السنغال التي غادرتها، هناك سيئون بممارسات سيئة. تعلم أن هذا أمر موجود بكل مكان بالعالم. هناك شباب أذكاء. وهناك أناس أشرار هذه هي الحياة في المغرب والسنغال والولايات المتحدة وإسبانيا. وغيرها... »

إن هذه الأقوال تعبر عن تصورات لمبجوثين يرون في ذواتهم أفرادا مقبولين بالمجتمع، مشيرين في تعبيرهم عن الشعور بالقبول إلى بعض المؤشرات من قبيل : الصداقة، والأخوة، والتبادل، والدعوة لمشاركة الأكل، مؤكدين في مستوى معين على أن الأمر يستحق تجاهل بعض الإساءات التي قد تصدر عن البعض ممن يعتبرونهم أشرارا، وهي مسألة يمكن تبريرها بكونها لا ترتبط فقط ببعض المغاربة، وإنما هي خاصية تشترك فيها جميع المجتمعات أينما وجدت سواء ببلدانهم الأصلية أو غيرها من البلدان المذكورة في كلام أحمدو.

غير أن الأمر بالنسبة للبعض من المبحوثين، يستدعي الوقوف عنده باعتباره عاملا لتقييم شعورهم بالقبول، بما هو شعور نسبي يبقى للنقاش. يقول شاد schade من أفريقيا الوسطى : « أنا ، أعتقد فيما يتعلق بي ، أنه صحيح ، أنه يبقى أمرا للنقاش ... أنا ، لم أشعر بأي رفض تجاه بعض المغاربة في المجتمع ، ولكن في الواقع. هناك ، هذا ، أستطيع أن أقول ذلك 50 ، 50 ، أستطيع أن أقول أن هناك البعض لا يظهر لك ، لكن في قلوبهم ليس الأمر كذلك حقا ، لكن الآخرين يظهرون لك كيف يحبونك حقا. هناك آخرون على أي حال ، وهم 50 ل 50 ، يمكنني أن أخبرك بذلك 50 ، 50... »

نفس الأمر نجده لدى برونيت brunette من الكونغو الديمقراطية إذ تقول : « إذن أنا أقول ، نعم ولا ، الإثنين معا... » ويعبر عن نفس التصور ألفا Alfa من السنغال بالقول : « من جهة ، نعم ، نعم ، أعتقد أنني سأصبح فردا مقبولا جدا ، هناك أناس طيبون ، يقبلونك منذ البداية ، وهناك آخرون يتصرفون بنوع من العنصرية ... »

أما ستيفيلا stephila ، فتعتبر أن شعورها يستحق تقييما يتجاوز نسبة الخمسين بالمائة إلى الستين بالمائة ، قائلة : « حسنا ، ليس الجميع أنا ، بشكل عام ، سأشرح ، الأمر يعتمد على الناس ، عليك أن تعرف أن الجميع ليس لديهم نفس الفهم. لا يمتلك الجميع نفس الطريقة في رؤية الأشياء. إذا كان بعض الناس ؟ حسنا ، إنه الانطباع الذي لدينا ، بعد ذلك ليس بالضرورة ، إنه مجرد انطباع هو فقط للانطباع ، فيمكنني القول بنسبة 60٪ فقط للانطباع ... »

إن هذه النسب التي اتخذها هؤلاء المبحوثين ، مرجعا للتقييم ترتبط حسب تصوراتهم باختلاف الأفراد الذين يقابلونهم ، والذين لا يمتلكون نفس النظرة للحياة ، ولا نفس الفهم ، وهو أمر دفع بدانيال Danielle ، من الكاميرون للتحفظ على السؤال ، بالقول : « أقول لنفسي دائما أنني لست مقبولة تماما ... على المستوى الاجتماعي ، على أي حال ، أشعر بالقبول. لكن هل يقبلني الآخرون حقا ؟ لذلك لا يمكنني الإجابة على هذا السؤال ، أفهم ؟. لا أستطيع الإجابة عن هذا السؤال ... لماذا هذا السؤال ؟ هل أشعر بالقبول كما أخبرتك سابقا ، الجواب هو الجهل ، بالنسبة لي فإن مفهوم القبول يتجاوز شخصي. أفهم ؟ وهذا يعني أنني لا أشعر بالقبول في المغرب لأن المغاربة يتصرفون معي بشكل جيد فقط. سأشعر حقا بالقبول في المغرب عندما يتصرف المغاربة بشكل جيد مع جميع الأفارقة جنوب الصحراء ... »

إن تحفظها هذا نابع من اعتقادها بكون المغاربة لا يعاملونها كما يعاملون باقي الأفارقة من جنوب الصحراء.. لكن لماذا ؟ الجواب هو أنها ترى في معاملة المغاربة لشخصها ، لا ينبع من كونهم يقبلونها كفرد ، وكمهاجر ، وكجزء من الأفارقة ، بل



لكونها فردا استطاع أن يحقق ذاته في المجتمع، وأن يصنع من نفسه النجاح الذي يفرض على الآخرين قبوله، سواء كان مغربيا أو مهاجرا، وهو الأمر الذي يبرره كون المغاربة لا يعاملون الجميع بنفس الكيفية التي يتعاملون بها معها. إن القبول من وجهة نظر دانيال هنا ليس قبولا لشخصها، أو قبولا للمهاجر الذي تمثله، إنه في الواقع قبول للوضع الذي تمثله، باعتبارها فردا « ناجحا » في عمله كصحفية بإحدى أكبر المقاولات الإعلامية بالبلد، وضع يمنحها استقلالية مادية، تخلصها من التبعية والخضوع، وتجعلها في مكانة اجتماعية تستحق الاعتبار والتقدير، إذ تضيف قائلة : « هل هو حقا قبول؟ لا أعتقد ذلك، فالقبول الحقيقي بالنسبة لي هو عندما يعامل الجميع بالمثل، حينها يمكنني أن أقول نعم حقًا نحن مقبولون. نعم بالنسبة لجميع مواطني جنوب الصحراء، سواء أكان في وضع نظامي أم لا، يعمل أم لا؟ علينا أن نقبلهم بنفس الطريقة، علينا أن نتصرف بنفس الطريقة تجاههم، هكذا يمكننا أن نتحدث حقًا عن القبول. طالما أننا نتصرف بشكل جيد مع البعض، ولا نتصرف بشكل جيد مع الآخرين. لا أستطيع التحدث عن القبول ... »

يدفعنا هذا إلى القول، بأن القبول ليس مسألة ترتبط بالمهاجر كفرد، أو كممثل لفئة معينة من المهاجرين وحسب، وإنما هو أبعد من ذلك، يقوم على معطيات موضوعية تكون مرجعا للقبول بالنسبة للمجتمع المستقبل. قبول مشروط بالامتثال للمعايير الاجتماعية في العيش، والتي تفترض تحقيق الحد الأدنى من الامتثال للقواعد الاجتماعية، والانضباط لأخلاق المجتمع.

هذا الامتثال ليس بالمعطى الغائب عن المبحوثين، فهم يدركون جيدا أن عليهم ألا يخرقوا القواعد الأخلاقية للمجتمع، وأن ينسجموا ما أمكنهم مع متطلبات هذا المجتمع للقبول والرضى، خاصة وأنه فرد يتطلب منسوباً مرتفعاً من المراقبة الاجتماعية كما يؤكد على ذلك الميري في تحليله لأقوال بعض المبحوثين من دراسته المذكورة سابقاً : « القاسم المشترك بين هذه الروايات هو أنها تسلط الضوء على ثقل (نظرة الأغلبية) ، الأمر الذي يؤسس للمراقبة الشاملة لتحركات الأفارقة جنوب الصحراء. يتم التعرف عليهم من خلال لون بشرتهم، فهم موضوع (تحديق) ... » (El miri, 2018)

هذه الرقابة الشديدة، نتيجة للون البشرة الأسود المميز، حسب كلام الميري، تفرض على المهاجر، في الكثير من الأحيان ممارسة نوع من الرقابة الذاتية « l'autocensure » على السلوك، وعلى كيفية إظهار الذات « mise en scène de soi ».

والواقع أن بحثنا هذا يتجاوز الأمر إلى الحديث عن نوع من التفاوض الاجتماعي « négociation sociale »، ينطلق فيه المهاجر من الملاحظة، والتريث في سبيل فهم القواعد الاجتماعية للسلوك، والتصرف، إلى ما يجب فعله أو التنازل عليه، حتى يخفف من وطأة هذه الرقابة، ويصير فردا مقبولا غير مثير للانتباه « devenu invisible ».

يقول موسى من غينيا : « لقد قمنا بالملاحظة لمدة عام، في البداية، كان هناك نوع من عدم الثقة في كل شيء وكل شيء، ولكن بعد ذلك يعتمد الأمر عليك، يجب، أن تتصرف بشكل جيد معهم ... يكفي فقط أن يكون لديك سلوك منضبط، وأن تحترم القوانين المغربية وأن تعرف حقوقك وواجباتك ... »

يؤكد هذا القول، على ضرورة التريث في البداية، والاكتفاء بالملاحظة، وتجميع المعلومات حول المجتمع والأفراد، حتى يكتمل التقييم الذي سيكون أساسا لكيفية السلوك والتصرف، إذ يكفي حسب موسى أن يتصرف الفرد بشكل جيد، وأن



يكون سلوكه منضبطاً، وأن يحترم القوانين المغربية، ويعي حقوقه وواجباته. فما المقصود بالانضباط هنا ؟ وعن أي قوانين يتحدث المبحوث ؟

إن ما يقصده موسى بالانضباط هنا هو الخضوع للمبادئ الثقافية، والمعايير الاجتماعية، التي تفرضها سلطة الأغلبية بالمجتمع، سلطة تفرض قوانينها الخاصة، التي يجب على كل فرد، أكان من نفس الجماعة، أو وافد/ مهاجر من بلد آخر الخضوع والانضباط. فأين يتجسد انضباط هذا الأخير لمبادئ المجتمع ؟

يتجسد ذلك في الوضع العائلي للمبحوث ؛ فهو فرد متزوج وأب لطفل، يعيش في حي شعبي، يؤكد أن الجميع يحترمه هناك، ويساعده ويعاملونه كواحد منهم. « ... عندما أنجبت زوجتي، أتوا من كل مكان، هناك من أرسل ملابس لزوجتي، وكذلك للصغير، وهناك من النساء من عملن على تحضير "الرفيسة"، وكل ذلك »

إن هذا القول يجسد التضامن، والتعاطف، اللذان يعكسان نمط التعامل في هذا الوضع بالمجتمع المغربي، فعندما يتعلق الأمر ب « النفاس/الولادة » هناك طقوس ينبغي إجراؤها تعبيراً عن الترابط، والتلاحم بين الجيران، خاصة في الأحياء الشعبية، إذ يلاحظ أنه بمجرد ولادة مولود جديد، يأتي الجيران ليعبروا عن فرحتهم للعائلة، محضرين الهدايا والمأكولات، وحتى تحضير بعض الوجبات الخاصة بفترة « النفاس/الولادة » للأُم معتقدين في كونها وجبات تساعد على استعادة لياقتها الجسدية، وتذرع الحليب للرضيع، وهو ما عبر عنه المبحوث بقوله : « لقد حضروا لزوجتي/الرفيسة ». ولكن ألا يثير هذا التساؤل عندما يتعلق بمهاجر « غريب » عن ثقافة هذه الطقوس ؟

هنا يكمن مربط الفرس، هل تعاطف هؤلاء الجيران مع موسى الشخص، أم مع زوجته كفرد ؟ إن الجواب في كلتا الحالتين هو النفي ؛ فالجيران لم يتعاطفوا مع الأشخاص، وإنما تعاطفوا مع الأسرة، ومع الأم بالأساس. هذا إذا ما علمنا أن الأسرة في المخيال المغربي تعبر عن الأمان، والإستقرار، كما أنها تؤدي وظيفة أساسية في الضبط الاجتماعي، والحفاظ على المعايير، والقيم وإعادة إنتاجها واستمراريتها. هذا ما يقصده موسى بقوله « الانضباط » إنه انضباط للمعيار المغربي في العيش « à la norme Marocaine » باعتبارها ممثلاً لأسرة وما تمثله الأسرة في نظر المجتمع كرمز للأمان واللاتهديد. وعلى خلاف ذلك لو كان موسى عازباً أو « زوفاً » أو أما عازبة مثلاً. هل كان ليلقى نفس المعاملة ؟ الجواب هو النفي هنا.

وهو ما يؤكد وضع برونيت Brunette من الكونغو متحدثاً عن الصعوبات التي تواجهها كل مرة في بحثها عن منزل للكراء : « قال لي ، لن أستاذجّر السود ».

قد يبدو الأمر في البداية تعبيراً عن موقف « عنصري » مؤسس على لون البشرة « الأسود » لهذه المبحوثة، ولكن الأمر يتعدى ذلك إذا ما أخذنا الوضع العائلي لهذه المهاجرة بعين الاعتبار ؛ إنها أم عازبة لطفلين، وهو ما قد يعكس نظرة المغاربة للأُم العازبة أو « الهجالة »، وهو وضع ليس بالمرغوب فيه بالمجتمع، ذلك أن « الهجالة » امرأة مثيرة للمتعاب، ومصدر لعدم الثقة، قد تستغوي الرجال بالحي أو تستحوذ على المتزوجين، وتفكك الأسر. لذا من الأفضل رفضها واستبعادها درءاً للمشاكل التي قد تأتي معها.

ونتيجة لذلك يذهب المهاجرون إلى اعتماد استراتيجيات من شأنها أن تلين نوعاً ما من هذا الرفض الذي قد يواجهونه كأفراد، متنازلين تارة، ومتحايين تارة أخرى، خاصة عندما يتعلق الأمر بالاختلاف العقائدي والديني، يقول جوفيال Jovial.



من الكاميرون : « نتأقلم حقًا ... نعلم أننا في بلد مختلف من حيث الثقافة والطعام والدين أيضًا، على سبيل المثال خلال شهر رمضان، أنا، أنا مسيحي كاثوليكي، فأنا لا أصوم ؟ لأكل في أيام رمضان، فأنا أختبئ، أنا لا أكل في الشارع ... أنت تعلم أنك لست في بلدك، عليك أن تحترم دين الآخرين ... هكذا ... نحن نتصرف هكذا ... »

إن فعل الاختباء هنا، يعتمد جوفيا، كاستراتيجية للتأقلم - كما يقول - فما يحكم سياق العيش خلال شهر رمضان بالمجتمع المغربي هو حكم الأغلبية، حيث ينبغي على الجميع إظهار الولاء للجماعة، والتصرف وفقا لقواعدها، والصوم هو أحد تجليات الانسجام مع مبادئ الجماعة. وأي تمرد على ذلك تكون نتائجه الإقصاء، والرفض، والعقاب. الأمر الذي يتجنبه هذا المهاجر بتحليله على القاعدة الملزمة للصوم في الفضاء العام، بالاختباء في منزله لتناول وجباته من الطعام.

فقبولك بالجماعة رهين بسلوكك وكيفية إظهار ذاتك يقول شاد من أفريقيا الوسطى :

« لدي علاقة جيدة مع المغاربة بشكل عام، لأنني أعرف سلوكي، فالأمر يعتمد على ما أنت عليه أولا، وإذا كنت تعاني من مشاكل. لن تكون قادرًا على العيش معهم ... إذا كنت شخصا منفتحًا، لا أعتقد أنك ستواجه مشاكل، لأن المشكلة قد انتهت بالفعل، لقد قلتم بالفعل، لأنه إذا كانت لديك مشكلة سيكون من الصعب عليك العيش مع أشخاص آخرين من ثقافات مختلفة ... »

لاحظ هنا التبرير الذي يقدمه شاد، لكون علاقته جيدة بالمغاربة، فالأمر حسبه رهين بشخصه، وبالكيفية التي ينبغي أن يتصرف بها ويظهر ذاته من خلالها، إن الأمر يعتمد على ما الذي ينبغي أن تكون عليه أنت أولا ؛ فالشخص الذي يعاني من مشاكل في فهم الآخرين، نتيجة لانغلاقه على ذاته، سيواجه حتما مشاكل في التعايش مع الآخر المختلف. مما يتطلب حسبه نوع من الانفتاح، والتقبل، والفهم الجيد للآخر، ومن خلال ذلك التوقع حيث لا ينبغي إثارة المشاكل، وإنما التوافق، والانسجام، والتأقلم.

إن هذا الأمر يستدعي التنازل، والعمل على التعديلات المناسبة لتحقيق التعايش والتوافق، في إطار الاختلاف، ولا يعني الأمر دوما التخلي عن الثقافة أو الدين الأصلي للمعني بالأمر، وإنما يعني ذلك خلق نوع من الجسور الثقافية في إطار ما يمكن أن يسمى ب : « المابين-ثقافي » (l'interculturel) (Collès, 2013, pp. 75-90)، ويتحقق ذلك بالنسبة ل بيير كاس Pierre Casse، من خلال اعتماد المقاربة القائمة على تحليل وفهم صدامات التلاقي بين الثقافات. وتقوم هذه المقاربة على تحليل وضعية « الصدمة الثقافية » (le choc culturel) ، تلك التي يتموقع فيها الفرد في مواجهة ثقافة جديدة أو « غريبة » عن ثقافته الأصل، تدفعه إلى إصدار ردود أفعال مختلفة تبعا لطبيعة الشخص. ولتحليل هذه الوضعية يقترح Casse أربع مراحل : الأولى هي المرحلة الأساسية ؛ مرحلة الالتقاء الأولى مع الثقافة « الغريبة »، وهي المرحلة التي يتم فيها « تقييم » الفرد، والحكم على سلوكاته، وردود أفعاله المختلفة. المرحلة الثانية؛ مرحلة التعديل الأول للحكم أو الموقف، والمرحلة الثالثة؛ مرحلة التوتر والمواجهة، حيث هنا تثار مسألة الهوية. أما المرحلة الرابعة؛ فهي محاولة ضبط هذا التوتر، والتحكم فيه، إما عن طريق مواجهته أو التناغم معه؛ أي إما برفضه أو تقبله. وفي جميع الحالات، هناك إمكانيتين؛ إما معادات الاختلاف ورفضه، أو تقبله وتأكيد كيمعطي إضافي لإغناء الثقافة.

ومن خلال كلام المبحوثين هنا، يتضح أنهم يسرون نحو التعديل، والتحكم في التوتر ما بين الثقافتين : ثقافة بلدهم الأصلي، وثقافة البلد المستقبل (المغرب) فغايتهم واضحة في تحقيق التناغم، وتقبل الاختلاف، وليس الرفض والانغلاق.



إن تحقيق التناغم يتطلب حسب ألفا alfa من السنفال التحلي بصفات محددة تسمح للآخر بقبولك والانفتاح عليك، إذ يقول : « هنالك الكثير من الناس، الذين يقولون لي، كالمغاربة، يقولون لي أنت لطيف. أنت مبتسم، أنت تتحدث معنا جيداً...»

فخصائص الشخص وقابليته للتأقلم مع ما ينتظر منه أن يظهره للآخر المختلف من ود ولطف، وبشاشة، وتواصل، هي ما تجعل منه مقبولا ومندمجا بعكس الذي يظهر العداء أو الانغلاق أو السوء. يضيف نفس المبحوث : « كما ترى أحيانا يقولون إن هناك سنغاليين سيئون بعض الشيء لكن. أنت مختلف مقارنة بالآخرين لأنك تأخذ من وقتك وتناقش معنا، أنت مبتسم، وأنا أقول أن هذه هي الحياة...»

ونلاحظ هنا أن المبحوث يؤكد على صفة الابتسام، وعدم إظهار السوء، وأيضا على إظهار الاهتمام، فأن يأخذ من وقته للحديث مع المغاربة، بالنسبة له دليل اهتمامه لأمرهم، وانفتاح منه عليهم. يقول موسى مؤكدا كلام ألفا بخصوص عدم إظهار السوء : « لن تسمع هذا من أحد، لن يقول لك لا، إنه هكذا، لا، إن ذلك خاطئ، لا أحد سيقول لك لا، أنا أشتكي منه، إنه غير خلاق، أشتكي منه لأنه ليس منضبطا، لا أحد سيقول لك ذلك...»

ولا يقتصر إظهار الاهتمام على الابتسام أو التواصل فقط، بل يتطلب الأمر بالنسبة لموسى من غينيا عدم إثارة المشاكل، وشكوى الجيران، والظهور بصفة الخلق الجيد، والمنضبط، ولم لا الاهتمام بالأطفال الصغار من أبناء الجيران أيضا إذ يقول :

« في البداية ، كان هناك نوع من عدم الثقة في كل شيء وكل شيء، ولكن بعد ذلك يعتمد الأمر عليك، فمن الضروري، إذا كنت تتصرف بشكل جيد معهم، فهم لطفاء، وعليك أن لا تخاف منهم. أذهب إلى المتجر، أأخذ، يمكنني أخذ 50 قطعة حلوى، أعطي الأطفال، أطفالهم. مثل هذا بالفعل، هل سيتصرفون بشكل سلب؟ لا، هذا خطأ... بل هم سعداء، الأمهات، الجميع. لذا عندما أمر ألقى التحية :سلام سلام، بخير، الأطفال في المساء يأتون إلي موسى الحلوى. أشاركهم، ألعب معهم، وأذهب...»

هكذا فإظهار الاهتمام أمر لا بد منه حسب موسى، خاصة فيما يتعلق بالأطفال، فهم جسر لإظهار حسن النية، وإسعاد الآباء، ونيل رضاهم. فما الذي يمكن أن نستنتجه من هذا ؟

نخلص مما سبق، إلى القول بأن القبول الاجتماعي للمهاجر/الغريب عن الثقافة، وعن المجتمع، ليس بالمعطى الجاهز، أو رد الفعل العفوي الذي قد يصدر عن أفراد تجاه أفراد آخرين من ثقافة مختلفة. إننا أمام قبول على أسس موضوعية، يلعب فيه الوضع المادي، والاجتماعي خصوصا للمهاجر دورا مهما. إنه في الواقع قبول لفرد استطاع بفضل مؤهلاته المهنية، أن يصنع من ذاته نجاحا يجعل منه محط تقدير واحترام (حالة دانيال)، أو لفرد تحققت فيه الشروط الأدنى للعيش في المجتمع كأسرة تستحق الاهتمام، والتعاطف (حالة موسى)، أو لفرد مدرك بشكل جيد لضرورة التأقلم والتناغم مع ضوابط المجتمع الأخلاقية، والتي على أساسها ينبغي أن يظهر الانضباط والخضوع، وعدم إثارة المشاكل، أو التمرد.

إن القبول هنا رهين بالخضوع، والتنازل، وإظهار الذات بمظهر المتناغم، والمنسجم، واستبعاد كل ما من شأنه إثارة الانتباه، أو ردود الفعل الراضية. وهو ما يستلزم من المهاجر ابتكار استراتيجيات تساعد على تفسير الحدود الثقافية « érosion des frontières culturelle »، بالتواصل، والانفتاح، وإظهار الاهتمام، والابتسام، وإخفاء السوء، وحتى الاختباء لتناول الوجبات خلال المناسبات المقدسة كمناسبة رمضان.



بهذا المعنى نخلص إلى القول إننا أمام قبول مشروط بالتوافق مع المعيار المغربي للعيش « à la norme marocaine » d'existence » مشروط بالتنازل، وناتج عن ملاحظات، وتقييم، وتعديل للسلوك في سبيل الانسجام مع المتطلب للاندماج في الثقافة المستقبلية. إنها عملية تفاوض اجتماعي مستمرة تتجاوز مفهوم الرقابة الذاتية إلى تعديل سلوكي، وتلميع جيد للصورة الظاهرة للمجتمع. فتحقيق القبول داخل المجتمع عملية بناء وتشديد تتطلب الفهم الجيد للآخر في سبيل إدراك الدور الذي ينبغي أن تلعبه الذات وتظهر به في علاقتها به.

إن القبول هنا هو نتيجة للإدراك الجيد لكيفية التموقع على خشبة الآخر الثقافية، والإجتماعية، mise en scène » de soi » التموقع بكيفية لا تظهر للآخر أي شكل من أشكال العداء، أو التهديد، وإنما بكيفية تجعله يطمئن، ويتعاطف، وينجذب. وهو الأمر الذي أدركه هؤلاء المبحوثين وعملوا على تحقيقه ولو في مستوياته الدنيا في العلاقة بالمغاربة.

فما هي مظاهر وتجليات القبول الاجتماعي للمهاجر؟ وأين تتجلى مؤشرات الرفض والصد ؟

الجدول رقم 1 : مؤشرات القبول والرفض الاجتماعيين

مؤشرات القبول	مؤشرات الرفض
• على المستوى الإداري والمؤسسي: - يؤكد بعض المبحوثين على أنه رغم ولوج التراب المغربي بكيفية غير نظامية، فإن السلطات (ذوي الزي الرسمي) يستقبلونهم بشكل جيد، ويغضون الطرف عن وضعيتهم القانونية. - يؤكد البعض على حسن الاستقبال بالإدارات العمومية، والتواصل الجيد، وأن هناك نوع من الليونة والمرونة فيما يرتبط بالقضايا الإنسانية والاجتماعية. - تقديم المساعدة فيما يخص تأسيس الجمعيات والتمثيلات المدافعة عن حقوق المهاجرين من جنوب الصحراء. - تقديم الخدمات الطبية دون تمييز. • على مستوى العلاقات الاجتماعية وعلاقات الجوار : - هناك علاقات جيدة بالجيران - تكوين صداقات، - تبادل النصائح والتوجيهات، - مشاركة وتبادل الوجبات الغذائية، - تقديم التهاني والهدايا بالمناسبات (الولادة)، - تبادل الزيارات بالمنازل، - استقبال من أجل السكن بالمنزل لمدة معينة من أجل متابعة الدراسة، - التعبير عن الحب والثقة، - إلقاء التحية، - الاتصال بالهاتف للسؤال على الحالة الصحية،	• على مستوى الإدارة والوضعية القانونية : - تعقيدات مسطرية وقانونية من أجل الحصول على بطاقة الإقامة أو تجديدها، - صعوبة إلى استحالة الحصول على قروض بنكية، - التوقيفات الدورية من أجل التحقيق في الهوية، • على مستوى العلاقات الاجتماعية : - التعرض للسب والشتيم من طرف بعض المغاربة : (العزي، العزوة، الخرفان، الكرئيس، تبا لك (...Fuck you - التعرض للتحرش بالنسبة للإناث، - الرمي بأشياء من القمامة، أو الأطعمة الفاسدة : (تفاحة فاسدة، أو بطاطس فاسدة) - التعرض للسرقة بالعنف، (لكريساج)، - سلب الأغراض والسلع التي يتاجر بها الباعة المتجولون دون مقابل، - الضرب والشجارات دون سبب معين، - تجنب التواصل، - الاتهام بالتحرش بوسائل النقل العمومية، بالنسبة للذكور،



تجنب الجلوس بجوار "السود" بوسائل النقل العمومية، تسبيق/تفضيل المغاربة أو (البيض) عند طلب سيارات الأجرة الصغيرة، • على مستوى السكن (الإيجار) : رفض إيجار المساكن للأفارقة "السود"، ورفع الأثمنة بالسنية لهم بالمقارنة مع المغاربة، رفض الجيران للأفارقة بهم إثارة الفوضى، والإخلال بالأخلاق العامة، • على المستوى المهني والعلاقات المهنية : - رفض التواصل من طرف "زملاء العمل"، - تجنب التواصل بلغة المهاجر أو الإجابة عن تساؤلاته، - في بعض الحالات لا يؤدي المشغل أجر العمل. • الصعوبات : - صعوبة الحصول على عمل في مجال التخصص، - صعوبات مرتبطة بالتواصل، - صعوبات مرتبطة بالحصول على سكن للإيجار، - على مستوى الدراسة، هناك بعض الحصص التي يلقي فيها الأساتذة دروسهم باللغة العربية.	- المشاركة في ممارسة الرياضات الجماعية (كرة القدم)، - المعاملة الجيدة من طرف بقال الحي (إمكانية الاقتناء بسلف)، - مرونة في أداء الأقساط الشهرية للكرءاء، خلال الفترات الصعبة ماديا (الحجر الصحي مثلا) - السماح بالتقدم لقضاء غرض إداري أو التبضع دون الاضطرار لانتظار الدور (في الحالات المستعجلة). • على المستوى المهني : - المواكبة المهنية، والتكوين، - الإرشاد والتوجيه، - التشجيع والتحفيز، • على المستوى الدراسي : - المساعدة على إنجاز الدروس وفهمها من طرف الزملاء بالدراسة، - غياب التمييز بين الطلبة على أساس الجنسية أو اللون، • المساعدات : - تلقي مساعدات غذائية خلال فترة الحجر الصحي (كوفيد 19- سنة 2020) سواء من طرف جمعيات المجتمع المدني، أو من طرف مؤسسات الإدارة الرسمية، أو من طرف أفراد ذاتيين، - مساعدات مالية من طرف أفراد (محسنين)، - مساعدات من طرف الجيران (مرافقة من أجل التبضع، أو قضاء بعض الأغراض الإدارية، أو للعلاج بالمستشفيات، أو خلال الولادة، أو للتخلص من القمامة، أو إصلاح بعض المشاكل المرتبطة بالأجهزة المنزلية)
---	---

المصدر : بحث ميداني شخصي

يلاحظ من خلال هذه المعطيات أن المبحوثين، يستطيعون التمييز بين المؤشرات التي توجي بالقبول وتلك التي توجي بالرفض، مستعرضين مختلف المجالات والميادين التي اختبروا فيها هذه المؤشرات، مؤكدين في مستويات معينة على أن السلوكات، والأفعال المؤشرة على الرفض ليست بالمعطيات المطلقة، وإنما لها ما يبررها لدى البعض، يقول جوفيال من الكاميرون : « إن هؤلاء الذين لا يقبلوننا، لا يقبلوننا، لأنهم لا يفهمون، لأنهم جهلاء... »

إن للأمر علاقة بالجهل، بالنسبة لجوفيال، الأمر الذي لا يجده مع المتعلمين أو أولئك الذي ارتادوا المدرسة، وهو ما يؤكد عليه أحمدو ، من السنغال بالقول : « ليس كل المغاربة، كما قلت، المغاربة الذين ارتادوا المدرسة، أو المغاربة المسلمون، الذين يقولون : أشهد أن لا إله إلا الله، هناك الكثير من المغاربة الذين يعرفون ذلك جيدا... »، ويقصد هنا بأن سوء المعاملة أو إظهار الرفض، ناتج عن غير المتمدرسين، أو أولئك الذين لا يشهدون بوحداية الله، أي غير المسلمين.



أما مالك، من السنغال فيرى أن الأمر لا يستحق أن يؤخذ في الحسبان، وألا يعتبر القاعدة للحكم على العلاقة بالمغاربة، ما دام هنالك الكثير ممن يظهرون القبول، والمعاملة الجيدة، قائلا: « الآن لا أعير أي اهتمام للسوء، لأنني أمتلك القدرة على التجاوز... »

فالتجاوز بالنسبة له وسيلة وقائية، من سوء الذي يتعرض له، إذ أن هدفه من القدوم للمغرب ليس هو الشجار، أو إثارة المتاعب، بل هو العمل وحسب، أما مثل السلوكات والأقوال المسيئة، فهي لا تعبر سوى عن تفاصيل ينبغي غض الطرف عنها وتجاهلها إذ يضيف: « أقول إنني لا أهتم. أنا أمر وحسب. يا صديقي شيء، أنا ذاهب، لا يهمني. أنا أتحدث هكذا لا يوجد عندي. أنا أتيت إلى المغرب ليس لخوض الشجارات، لقد جئت من أجل العمل، أتيت إلى المغرب لأعيش حياة طيبة وأدع التفاصيل... »

إن هذا يعيدنا للتفكير في استراتيجيات التأقلم التي يعتمد عليها المهاجر، في مواجهته للصعوبات، و« سوء المعاملة » على وجه الخصوص، إنه فرد تعلم كيف يتجاهل، ويتجاوز، ويغض الطرف، مركزا على تحقيق ذاته، ومشروعه الهجروي، وتاركا كل التفاصيل المتعلقة بإكراهات الحياة والعلاقات الاجتماعية جانبا. ولعل ذلك هو ما يعكس انطباع أغلب المبحوثين عن علاقتهم بالمغاربة كما سنحدد في المحور التالي.

III. تقييم المهاجر للعلاقة بالمغاربة

إن تقييم العلاقة بالمغاربة، ينطلق من هدف غايته تحديد الانطباع العام للمبحوث عن هذه العلاقة، محاولا من خلال ذلك رصد القدرة على التأقلم والاستراتيجيات المعتمدة في تليين وتذليل الصعوبات والإكراهات التي تتخللها. فالمبحوثون وإن تحدثوا عن التعرض للكثير من المضايقات ومؤشرات الرفض، إلا أن أغلبهم، ذهب إلى التقييم الجيد للعلاقة بالمغاربة، مستعرضا قدراته على اختراق شبكة العلاقات وبناء جسور للتواصل، والتموقع داخل النسيج العلائقي الاجتماعي.

تقول برونيت Brunette من الكونغو الديمقراطية: « بشكل عام، لدي علاقة جيدة للغاية. لا أستطيع أن أكذب، أنا بحال أفضل في المغرب، أنا شخصياً، باستثناء هذه الأشياء، علاقتي جيدة جداً مع المغاربة وهذا كل شيء. هناك دائما الخير والشر، ولكن الناس الطيبين أكثر »

ويقول مالك من السنغال: « سأقول إنها جيدة، إلم نقل أنها جيدة جدا، إنها جيدة، أو إنها جيدة جدا، نعم علاقتي بالمغاربة جيدة، وحميمية، صراحة نعم، حقا »

ويقول موسى من غينيا: « علاقتي بهم اليوم، مع المغاربة، أعتقد أنها كذلك. إنها تبدو جيدة، إنها علاقة أخوة صادقة » ويضيف ألفا من السنغال: « نعم، بشكل عام، إنها جيدة رغم ذلك، نعم نعم نعم، المغاربة أناس لطفاء، وكثيرون هم اللطفاء، الأغلبية لطفاء بالمقارنة مع "الجهلاء"، أنا أجدها علاقة إيجابية، علاقة جيدة معنا »

فما الذي يجعل من هذه العلاقة جيدة حسب هؤلاء المبحوثين ؟

إن الجواب على هذا السؤال يعيدنا للمبررات والاستراتيجيات المعتمدة من طرفهم في التأقلم وإظهار الذات، يقول موسى:

« إنهم يثقون فيك، وعليك أن تفعل كل ما من شأنه أن لا يخيب هذه الثقة، إذ على المستوى الاجتماعي اليومي، المغاربة في مدينتي، أعتقد أنها علاقات جيدة ... لكن المغربي ليس من السهل أن يحبك، لكن إذا كان يحبك فهو مثل حب وطنه. لأن المغربي يحب وطنه »



كثيراً. أه، عندما يحبك فهو يحبك حقاً. لكن عندما يحبك، يجب ألا يخيب أمله. لديهم صدق معين، ثقة معينة يريدونها منك، ضمان معين ليقول أي شخص يمكنني الوثوق به، أي شخص يمكننا مشاركته، هو، إنه ليس خطراً بالنسبة لي، هو لا يشكل خطراً على بلدي، لا يشكل خطراً على ذلك. وأخيراً عندما يشعرون بذلك، فهذه هي الرابطة بينكما. أعتقد أن هذا يعني أنهم مطمئنون»

هذه إذن هي مبررات موسى لاختراق النسيج العلائقي المغربي، فالأمر بالنسبة له يتطلب معرفة جيدة بطبيعة المغربي، من حيث هو كائن، يميل إلى البحث عن الثقة، والصدق، والجدية في علاقاته، إنه يشبه حب المغربي للآخر، بحبه لوطنه، باعتباره رمزاً للأمان، والطمأنينة، فإن تحققت فيك هذه الخصائص كفرد ستجد أن هناك من سيحبك حبا حقيقيا، ويثق فيك، وبالمقابل عليك أن لا تخيب ظنه فيك.

إن إدراك هذه الأمور يدفع بالمبحوث إلى تعديل سلوكه، وإظهار ذاته بكيفية تنسجم مع ما يتطلبه الأمر لتكون العلاقة جيدة، تقول دانيال من الكامبيرون : « عندما أقول إن لدي علاقة جيدة مع المغاربة، يمكنك القول إن هذا لا يعني أنني صديق لكل المغاربة. لدي علاقة سلمية معهم، كما ترى، وقد نشأت هذه العلاقة السلمية من حقيقة أنني تعرفت على المغاربة وبالتالي تعلمت أن أعرف ماذا أفعل وما لا أفعله في الواقع »

فهذه العلاقة السلمية كما عبرت عنها دانيال، ليست بالمعطى الطبيعي لأي علاقة بالمغاربة، إنها وليدة عمل على الذات، وقراءة جيدة لسلوكات وعلاقات المغربي، قراءة استنتجت من خلالها ضرورة التصرف وفقاً لما يجب فعله، وما لا يجب بالمقابل فعله ؛ أي الامتثال للقاعدة المغربية في السلوك.

هذا ويؤكد جوفيال من الكامبيرون أن الأمر يعود للكيفية التي يراك من خلالها المغربي : « حسناً، علائقي بالمغاربة. أعتقد أنها مختلطة إلى حد ما، وذلك يعود إلى، كيف يأخذني مغربي، كيف أتعامل معه، أتعلم ؟ بالطريقة التي يقبلني بها مغربي. أنا أتحديث عملياً عن جوازي. أه، أنا دائماً أقول مرحباً لمن ألتقي بهم. أتعلم ؟ أحاول تكوين صورة جيدة عن نفسي...»

أي بناء على الصورة التي ينبغي أن تظهر بها، والكيفية التي تتعامل بها معه، وهو أمر يستدعي حسب نفس المبحوث، العمل على بناء الصورة المناسبة لتعكس هذه النظرة، وهذا الانتظار. إننا أمام فرد يسعى لكي يكون عند حسن ظن الآخر، فرد يعمل على صناعة صورة حسنة، حتى تحقق القبول لدى الآخر بالنسبة له.

إن هذا الأمر يضعنا أمام استراتيجية التعديل والموافقة في سبيل تحقيق التوافق والانسجام مع ما ينتظر : استراتيجية تقوم على التعديل، والتنازل، والمفاوضة ؛ فالمسألة تتعلق بالإدراك الجيد لطبيعة الطرف الآخر من العلاقة، بحيث يكون من الممكن التوقيع بالشكل المناسب والكيفية المناسبة، في إطار يسمح بالتبادل وخلق جسر للتواصل، يقول موسى : « هناك ، يحترموني، أحترمهم، يحبونني، أحبهم، وهذا كل شيء، ... هناك احترام متبادل، على أي حال بالنسبة لي، هذا ما يهمني معهم، حتى وإن كان هناك أشخاص قالوا لي: أه لكن لا، أنت تعيش هنا، لا يمكنك البقاء هنا، دع المكان الناس سيئون هنا، عدوانيين ... أنا، لم يظهروا لي ذلك، إنهم لطفاء مرتين، يرسلون لي "الحريرة"، وأحياناً يرسلون لي الكسكس، أرسلوا لي كعكات مصنوعة من جوز الهند، نواة جوز الهند...»

فالتبادل هنا على حد تعبير موسى، يكون ممكناً عندما يظهر الفرد الحب والاحترام للطرف الآخر، فهو السبيل لتليين العلاقة، مهما كانت ظروف العيش، ومقوماته.



نستخلص من كلام المبحوثين حول علاقتهم بالمغاربة، أنها تنبني على تقييم جيد، ولكن هذا التقييم، مرده في جميع الحالات للكيفية التي يتموقع بها المبحوث، ويظهر ذاته، إذ يتطلب حسهم إدراكا مسبقا لطبيعة الطرف الآخر، والعمل على بناء الجسور المناسبة للالتقاء، الأمر الذي يفرض نوعا من الملاحظة، والتشخيص الأوليين، يليه تعديل للسلوك، وتنازل عن بعض المعطيات الثقافية الأصلية للتصرف، ثم انسجام، وتأقلم مع ما تفرضه ثقافة الوضع الجديد. إن بناء علاقة جيدة مع المغاربة، ليس ناتجا عن التفاوض مع أفراد معينين، وإنما هو ناتج عن تفاوض مع الثقافة المغربية، تفاوض تحدد قواعده الأغلبية، ويخضع له المهاجر الوافد، ما دام الهدف تحقيق الانسجام، والقبول الاجتماعي بالبلد المستقبل.

الخلاصة

تم الانطلاق في العمل على هذا البحث من فرضية مفادها : أن القبول الاجتماعي-الثقافي للمهاجر هو في الواقع قبول مشروط بتصور المغاربة لهذا المهاجر، وللکيفية التي يظهر بها، ويتصرف وفقا لها، وبوضعه الاقتصادي، خاصة وأن الفكرة الأولية التي انطلقنا منها في إنجاز هذا البحث هي أن القبول الاجتماعي يأتي بعد الاندماج الاقتصادي، وتحقيق الذات في مجال العمل، كما يتجلى ذلك أيضا من خلال الوضع العائلي (إن كان متزوجا أم عازبا)، وبمعنى أكثر دقة يمكن القول أنه ليس هناك قبول إلا وفقا للمعايير المغربية في العيش والسلوك. فإلى أي حد تم تأكيد هذا الافتراض ؟

في الواقع تم تأكيد النسبة الأكبر من هذه الفرضية، ذلك أن القبول الاجتماعي للمهاجر، للآخر المختلف، ثقافيا ولغويا، وحتى فيما يرتبط بلون البشرة، ليس معطى مسلما به منذ البداية، فالمغربي لا يقبل أيا كان، وكيفما كان، بل إن القبول يرتبط بتوفر الشروط الموضوعية للقبول، لتحقيق القبول، أو لبناء هذا القبول.

ويتعلق الأمر هنا بالكيفية التي يتعامل ويتصرف وفقا لها الآخر/الوافد، وفقا للطريقة التي يظهر بها ذاته وصورته للمجتمع، حيث يجب عليه أن يتفاوض، وأن يتنازل، وأن يعدل من ذاته ونمط سلوكه، ويصنع تلك الصورة التي تنظرها منه الثقافة المستقبلية.

يبدأ ذلك مع أول لقاء بالمغاربة، والذي يتخذ هذا الآخر/الوافد مناسبة لتقييم تصوره السابق عن هؤلاء المغاربة، ثقافة وسلوكا، فيكون محددا لما ينبغي أن يكون عليه في المستقبل، خلال علاقاته المهنية، والاجتماعية بالشارع العام، أو بالوسط السكني مع الجيران. وهنا يدخل المهاجر في عملية مستمرة لاكتساب المهارات، وبناء الاستراتيجيات الملائمة للتكيف، والتأقلم مع بيئته الجديدة. حتى يكسر/يذيب الفوارق والاختلافات الشاسعة في الثقافة ونمط العيش.

نمط عيش تكون الكلمة الأخيرة فيه للأغلبية العددية والكيفية، فهي التي تحدد القواعد الأخلاقية والثقافية للسلوك والظهور على خشبة المسرح الاجتماعي، وتحدد الأدوار، وحتى كيفية لعب هذه الأدوار بالطريقة التي تظهر الترابط، والتناغم، والانسجام، وتبدي الطمأنينة، والثقة، وتتجنب مكامن الخطر والاختلال.

بناء على هذا، فإن المهاجرين الوافدين، وإن اختلفت جنسياتهم ومواطنهم وثقافتهم الأصلية، يعملون على تشخيص، وتقييم الوضع في البداية، متسائلين عن أفضل ما يمكن اعتماده والظهور عليه من صورة، تلبية للمتطلب تحقيقه في سبيل القبول، إذ يذهب بعضهم إلى التحدي بالبحث عن تحقيق الذات ضمن مجالات جيدة للعمل، تكون أساسا لجلب/فرض



التقدير والاحترام، فيما يذهب البعض الآخر إلى التحايل تارة، والتنازل تارة أخرى، أما الباقي منهم فيعمل على خلق نموذج يعكس الانضباط، والخضوع للمعيار الاجتماعي في العيش والسلوك.

إن الخلاصة تؤدي بنا على القول : إننا لسنا أمام قبول معطى ومجاني، وإنما أمام بناء وتشديد لهذا القبول، وتفاوض حوله، ما دامت الغاية هي تحقيق الذات داخل المجتمع، والحفاظ على علاقات جيدة بأفراده. فأن يتم قبولك اجتماعيا معناه، أن تنضبط للمعايير الاجتماعية في العيش والسلوك، وأن تظهر ما أمكن أحسن صورة عن ذات تستحق الثقة، وتكون مصدرا للطمأنينة، وأن لا تشكل أي خطر على البنية الاجتماعية، وروابطها « المقدسة » للتعايش.



ملحق الجداول

الصفحة

الجدول

21

الجدول رقم 1 : مؤشرات القبول والرفض الاجتماعي

قائمة المراجع

المراجع العربية

- المالكي، عبد الرحمن. (2016). *مدرسة شيكاغو ونشأة سوسيولوجيا الهجرة والتحضر، الدار البيضاء: أفريقيا الشرق*.

المراجع الأجنبية

- Alioua, M. et al. (2017). *la nouvelle Politique migratoire marocaine, Université internationale de Rabat, Konrad-Adenauer-Stiftung e.V.* ISBN : 978-9954-9666-7-9.
- Collès, L. (2013). *Passage des frontières*. Louvain-la-Neuve : Presses universitaires de Louvain. ISBN 978-2-87558-238-6
- Khachani, M. (2006). *L'Émigration Subsaharienne : le Maroc comme espace de transit*, Rabat, AMERM.
- Kristeva, Julia. (1988). *Etrangers à nous-mêmes*. Fayard.
- Mazzella, S. (2016). *Sociologie des migrations*. (2e éd.). Presses Universitaires de France. <https://doi.org/10.3917/puf.mazze.2016.01>.
- Merleau-Ponty, M. (1945). *Phénoménologie de la perception*. Paris : Gallimard.
- Mouna, K. et al. (2017). *l'Immigration au Maroc : les défis de l'intégration*. collection RSSI.
- Mourji, F. et al. (2016). *le migrants subsahariens au Maroc, enjeux d'une migration de residence*. Université internationale de Rabat, Konrad Adenauer Stiftung e.V. ISBN : 978-9954-9610-7-0.

المقالات الأجنبية

- Alioua, M. (2013). « Le Maroc, un carrefour migratoire pour les circulations euro-africaines? ». *Hommes & migrations. Revue française de référence sur les dynamiques migratoires*, (1303), 139-145.
- BERRIANE, M. et al. (2010). « L'immigration vers Fès. Le sens des nouvelles dynamiques du système migratoire euro-africain ». *African Migrations Workshop The Contribution of African Research to Migration Theory* 16–19 November 2010, Dakar, Senegal.
- Charbit, Y. (2019). Charef Mohammed, L'État, le rôle et la place des Marocains du monde dans la région de Souss-Massa. *Revue européenne des migrations internationales*, 35(1), 251-252.
- Charef, M., & Gonin, P. (2005). Place et rôle des émigrés/immigrés dans le développement local. *Editions Sud-Contact*, Agadir. pp. 9-19.
- El Miri, M. (2018). « Devenir " noir " sur les routes migratoires : racialisation des migrants subsahariens et racisme global » . *Sociologie et sociétés*, 50(2), 101–124. <https://doi.org/10.7202/1066815ar>



- Ferrié, J.-N. (2020). « Contraintes et limites de la politique migratoire marocaine ». *Migrations Société*, 179(1), 109-113.
<https://doi.org/10.3917/migra.179.0109>.
- Khachani, M. (2016). « la politique migratoire au Maroc : les nouvelles dispositions réglementaires », *Aula Mediterranea, IMED*, n°30.
- KHACHANI, M. (2011). « La question migratoire au Maroc : Données récentes », *CARIM Analytic and Synthetic Notes*, 2011/71, Mediterranean and Sub-Saharan Migration: Recent Developments Series, Socio-political Module, [Migration Policy Centre], [CARIM-South]. Disponible sur : <<https://cadmus.eui.eu/server/api/core/bitstreams/21b7e532-9531-5a7b-83be-3fabafbb5e6c/content>>
- Lachhab, S. (2017). « Accès au logement et intégration des migrants subsahariens, le de la ville de Meknès ». In : **l'Immigration au Maroc : les défis de l'intégration**. collection RSSI, pp 55-63.
- Martinez, L. Feliu. (2009). « Les migrations en transit au Maroc. Attitudes et comportements de la société civile face au phénomène / In-transit migration in Morocco: attitudes and behaviour of civil society ». *L'Année du Maghreb* 2009. Paris : CNRS, pp. 343 - 362.
- McKeown, A. (2012). « Les migrations internationales à l'ère de la mondialisation industrielle, 1840-1940 ». Le *Mouvement Social*, 241(4), 31-46. <https://doi.org/10.3917/lms.241.0031>.
- Mghari, M. (2009). « La Migration Irrégulière au Maroc », *Centre D'Études et de Recherches Démographique (CERD)*, Rabat.
- Polistena, C. (2017). « L'insertion professionnelle des migrants subsahariens diplômés au Maroc, le cas de Fès et de Meknès ». In : **l'Immigration au Maroc : les défis de l'intégration**. collection RSSI, pp 35-43.
- Soulay Mahamado, L. (2017). « Migrations estudiantaire subsaharienne vers le Maroc : quelles spécificités ? » In : **l'Immigration au Maroc : les défis de l'intégration**. collection RSSI, pp 23-31.

المؤسسات الحكومية

- المملكة المغربية، وزارة العدل، مديرية التشريع، القانون 02-03 المتعلق بدخول وإقامة الأجانب بالمملكة المغربية وبالهجرة غير المشروعة. الجريدة الرسمية عدد 5160، بتاريخ 18 رمضان 1424، 13 نونبر 2003، ص 3017.

- Décret n° 63/779 du 27 juillet 1963 portant publication de la convention de main-d'œuvre entre la France et le Maroc du 1er juin 1963.

المؤسسات غير الحكومية

- المنظمة العالمية للهجرة لسنة 2020، عن موقعها الإلكتروني الرسمي :
<<https://worldmigrationreport.iom.int/wmr-2020-interactive/?lang=FR>>

- AMERM, de l'Afrique subsaharienne au Maroc : les réalités de la migration irrégulière, rabat, juin 2008.



الهوامش

"لحريگ lehrig" ارتبط هذا التعبير بعمليات الهجرة التي لا تتم بطرق "قانونية"، وإنما تلك التي تتم بطرق سرية عبر البحر الأبيض المتوسط، بواسطة قوارب مطاطية "زودياك"، حيث يعتمد المهاجرون إلى حرق أوراق هوياتهم كي لا يتم التعرف عليهم عند الوصول للضفة الأوروبية، وكي لا تتم إعادتهم إلى المغرب، ازدهرت هذه الظاهرة خلال التسعينيات من القرن الماضي، نتيجة لسياسة إغلاق الحدود التي نهجها الاتحاد الأوروبي في الثمانينيات وما بعدها.

المقصود بالزمن الحاضر القرن العشرون، ولا نقصد بذلك الزمن الراهن.

لقد كان عدد المهاجرين المقيمين بالمغرب الحاصلين على بطاقة الإقامة يفوق 539.000 إلى حدود 1952م، وهو رقم سيتراجع بشكل كبير بعد الاستقلال الرسمي للبلاد، حيث سينتقل إلى 395.883 مقيم سنة 1960م، وسيستمر في التراجع ليبلغ 60.841 سنة 2002م، فيعاود الارتفاع من جديد ويأخذ مساراً تصاعدياً ليصل إلى 74.316 مقيماً، هذا فيما يرتبط فقط بالمهاجرين المقيمين بصفة قانونية. ويمكن العودة للمرجع التالي :

- KHACHANI, M. (2011). « La question migratoire au Maroc : Données récentes », CARIM Analytic and Synthetic Notes, 2011/71, Mediterranean and Sub-Saharan Migration: Recent Developments Series, Socio-political Module, [Migration Policy Centre], [CARIM-South]. Disponible sur : <<https://cadmus.eui.eu/server/api/core/bitstreams/21b7e532-9531-5a7b-83be-3fabafbb5e6c/content>>

وحسب المعطيات المتوفرة بالموقع الإلكتروني الرسمي للمنظمة العالمية للهجرة لسنة 2020 تقدر هذه الأخيرة عدد المهاجرين المتواجدين بالمغرب <<https://www.iom.int/fr/la-migration-dans-le-monde>> بحوالي 95,835 مهاجر.

Décret n° 63/779 du 27 juillet 1963 portant publication de la convention de main-d'œuvre entre la France et le Maroc du 1er juin 1963.

المملكة المغربية، وزارة العدل، مديرية التشريع، القانون 02-03 المتعلق بدخول وإقامة الأجانب بالمملكة المغربية وبالهجرة غير المشروعة. الجريدة الرسمية عدد 5160، بتاريخ 18 رمضان 1424، 13 نونبر 2003، ص 3017.

في إطار سياسة تشديد المراقبة على الحدود التي نهجها الاتحاد الأوروبي بشراكة مع مجموعة من الدول المجاورة بينها على وجه الخصوص المغرب، نوضح الأمر التالي : انطلقت الاشتغال على هذه السياسة باجتماع المجلس الأوروبي المعقود في فيينا في ديسمبر 1998، حيث أنشئ الفريق الرفيع المستوى المعني باللجوء والهجرة، بهدف وضع نهج مشترك بشأن قضايا الهجرة، بالتعاون مع بلدان المنشأ. ولكن في مجلس تامبيري/فنلندا في أكتوبر 1999، بدأت الأسس لسياسة مشتركة للهجرة في وضع خطط عمل لعدة بلدان، بما فيها المغرب. وبعد مجلس تامبيري، أثبتت مسألة الهجرة في مختلف المجالس الأوروبية. وفي إشبيلية في يونيو 2002، نشب جدل كبير عندما اقترحت إسبانيا فرض عقوبات على البلدان التي لا تشارك بما فيه



الكفاية في الجهود الرامية إلى الحد من تدفقات الهجرة. وكانت هذه الخطوات موجهة بشكل خاص إلى المغرب، لكنها رفضت في نهاية المطاف تحت الضغط الفرنسي. وبالمثل، قرر المجلس أن يتضمن أي اتفاق تعاون يتم توقيعه في المستقبل مع بلد ثالث شرط إلزامي بشأن إعادة القبول في حالة الهجرة غير الشرعية. وفي وقت لاحق، اتفق رؤساء الدول والحكومات الأوروبية في مجلس سالونيك في يونيو 2003 على ضرورة إنشاء آلية تقييم لمراقبة العلاقات مع دول ثالثة "لا تتعاون مع الاتحاد الأوروبي في مكافحة الهجرة غير الشرعية". وفي عام 2004، أنشأ الاتحاد الأوروبي الوكالة الأوروبية لإدارة التعاون العملي على الحدود الخارجية، التي تنسق سياسة الدول الأعضاء بشأن إدارة الحدود الخارجية. ومنذ عام 2006، تعمل دورية أوروبية لمكافحة الهجرة غير الشرعية بين جزر الكناري وساحل غرب أفريقيا، بميزانية قدرها 3.2 مليون يورو ومساهمة ثلاثة عشر بلداً أوروبياً. وبالإضافة إلى ذلك، أنشئ مركز للقيادة والتنسيق في تينيريفي (جزر الكناري) يمكن في هذا الإطار العودة للمرجع التالي:

- Martinez, L. Feliu. (2009). « Les migrations en transit au Maroc. Attitudes et comportements de la société civile face au phénomène / In-transit migration in Morocco: attitudes and behaviour of civil society ». L'Année du Maghreb 2009. Paris : CNRS, pp. 343 - 362.

في هذا الإطار يؤكد محمد خشاني (المراجع السابق) أن محاولة المغرب "تقنين" الهجرة بإصدار القانون 02-03، يتضمن في الكثير من فصوله مفاهيم ذات طابع أمني-وقائي : الفصول : 4 - 16 - 17 - 21 - 25 - 27 - 35 - 40 و 42. كما أنه قانون لا يحيل على الحقوق السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، للأجانب، كما أكدت عليها المعاهدات الدولية الموقعة من طرف المغرب، وبخاصة فيما يتعلق ب : "المعاهدة الدولية لحماية جميع العمال المهاجرين، وكذا أفراد عائلاتهم 1990". وهو بذلك لا يهتم في الواقع سوى الهاجس الأمني-الحمائي، بدل الهاجس الإدماجي.

سيتم تجسيد هذه المقاربة بإطلاق الإستراتيجية الوطنية للهجرة واللجوء المعروفة اختصاراً ب (SNIA) خريف 2013. والتي ستمهد لعمليتي التسوية القانونية لوضعية المهاجرين، العملية الأولى خلال سنة 2014، حيث تمت تسوية الوضعية القانونية لحوالي 18000 فرد من أصل 27000 طلب تم تقديمه للسلطات المعنية. فيما العملية الثانية تمت انطلاقا من 15 دجنبر 2016 وامتدت طيلة سنة 2017، والتي أسفرت عن تسوية وضعية أزيد من 11 ألف مهاجر، من أصل أزيد من 25 ألف طلب تم تقديمه خلال هذه الفترة.

الخطاب الملكي بمناسبة الذكرى 38 للمسيرة الخضراء. الرباط 6 نونبر 2013.

البراني : "من برا"، أي القادم من خارج الدار، أو المدينة، أو القرية، أو القبيلة أو البلد ككل، وهو الغريب عن الأهل والمعارف. مدينة تقع على بعد 88 كلمترا من مدينة الجديدة، في اتجاه مدينة آسفي عبر الطريق الوطني رقم 1. بجهة الدار البيضاء - سطات

قد لا يكون المغربي الذي سألته هذا المبحوث يجيد فهم أو تحدث اللغة الفرنسية، ولكن اعتبر الأمر رفضاً وصداً.



الرفيسة : أكلة يتم تحضيرها في مناسبات خاصة كالولادة، أو في أوقات أخرى غير هذه المناسبة، تركز في تحضيرها على التوابل الطبيعية، في خلطة تسمى بـ "المساخن" يعتقد أنها قادرة على إعادة اللياقة الجسدية للأم المنجبة "النافسة" بعد محنة المخاض والإنجاب، كما أن لها فوائد كثيرة فيما يرتبط بذر الحليب للمولود الرضيع.

الهجالة : لقب للمرأة التي فقدت الزوج، إما نتيجة للموت أو الطلاق.

الحريرة la soupe : ، شربة تستند في تكوينها على صلصة الطماطم والتوابل.

يتحدث موسى هنا عن جيرانه بعي (صفيحي)، وفي إشارته لتحذير الناس له من السكن بهذا الحي، فهو يؤكد على كونهم هم الأجدر بالجوار، وهم الطيبون حقا.